١٩٧٤

مكتبة نوبل

هاري مارتينسون

إنيارا

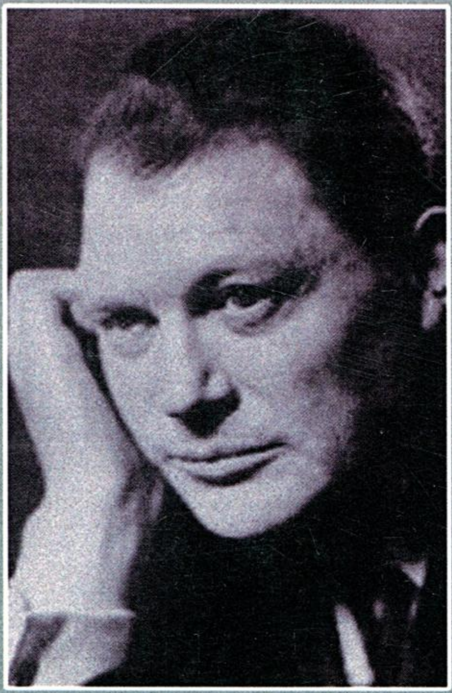

علي مولا

ترجمة

عابد اسماعيل

إنيارا

Author: Harry Martinson — المؤلف : هاري مارتينسون
Title: Aniara — عنوان الكتاب : إنيارا
Translator: Dr. Abed Ismael — المترجم : د. عابد اسماعيل
Al- Mada P.C. — الناشر : المدى
First Edition : 2006 — الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٦
Arabic Copyright © Al- Mada — الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٢
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

هاري مارتينسون

إنيارا

قصيدة ملحمية من الخيال العلمي

ترجمة د. عابد اسماعيل

إهداء

إلى روح والدي محـمـود علي اسـمـاعـيل
في مـثـواها الأخـيـر بين النجـوم

عابد

مقدمة

يتذكّر الشاعر آرثر لوندكفيست صديقه هاري مارتينسون بكلمات تشير إلى "القلب الواضح ببسطاته؟، ... وثقته التي لا تتزعزع بالحياة، والتي ستظهر لاحقاً بشكل أكثر جلاءً وتمنحه التفوق، والمقدرة في التغلب على كل تحدّ، وكأن الأمر مجرد لعبة، لا تحتاج إلى برهان." ولدت الروح الرشيقة لمارتينسون، كما يلمّح لوندكفيست، من بدايات يائسة جداً. فوالده مات باكراً، ووالدته هربت إلى الولايات المتحدة، وشقيقاته أصبحن سجينات في أبرشية في جنوب السويد، يعملن في أعمال صعبة ووضيعة. في عامه السادس عشر، وبعد عقد من الحياة البائسة، طلب العيش الكريم، فتوجّه إلى البحر، لكنه أخفق في ذلك أيضاً. وعقب إصابته بمرض الرئة السوداء، الذي كان شائعاً بين البحّارة، رسا على اليابسة مرة وإلى الأبد، عام ١٩٢٧ .

بعدما شفي من مرضه، لم يكن قادراً على العثور على عمل، فامتهن التسول في شوارع غوتنبرغ، محتكاً بفقراء ما قبل الثورة، ومتعرّفاً على الأسباب التي يمكن أن تدفع بهم إلى الأمام. من بين هؤلاء الفوضويين، والاشتراكيين الشبان، اختار مارتينسون زوجته، في عام ١٩٢٩ ، وخلال عقد من الزمن كرّس الاثنان سمعتهما: موا مارتينسون،

من خلال اهتماماتها السياسية الراديكالية، وروايتها؛ هاري، من خلال قصائده وكتب الرحلات التي استطاعت، عبر لغتها الجديدة، أن تجعل من العالم الطبيعي لتجاربه الأولى مكاناً للعبقرية والمتعة. لكن الاختلاف القائم في عمل كل منهما أدّى إلى إجهاض شراكتهما. كان الخلاف بينهما عميقاً جداً.

حين حضر مارتينسون مؤتمر الكتاب الروس في عام ١٩٣٤ في موسكو، توقّف أمام شعاره المقتبس من لينين: "الكاتب هو مهندسُ روح الإنسان." إنّ اهتمام المهندس بالخطوط المتناسقة والأساس الصحيح، لم تكن بالنسبة مارتينسون فضيلة خالية من النواقص. لقد تطلع إلى تجديد القوة الروحية للإنسان، ليس وفقاً لهندسة جديدة، وتنظيم جديد للحياة الإنسانية، بل من خلال التركيز على الجانب البدائي، وإيقاظ هواجس الخير المكبوتة التي توحّد الإنسان بالطبيعة. إن رجلاً كرس حياته بكليتها للحرية لا يمكنه أن يبقى متزوجاً لمدة طويلة من امرأة نذرت حياتها لنظام اجتماعي صارم. في عام ١٩٤٠ وقع الطلاق، وكان بمثابة حدث كئيب خاص، وسط كارثة عالمية واسعة النطاق.

في شتاء ١٩٣٩-١٩٤٠ اندلعت الحرب على طول الحدود الروسية الفنلندية. كان مارتينسون يخدم كمتطوع في الجيش السويدي خلال الحملة، غير أن الظروف كانت أقسى من حالته الصحية المهزوزة، وأعقب شهور الشتاء التي قضاها في فنلندا سنوات مليئة بالمرض والصمت، مما منحه وقتاً للتأمّل بالعالم الجديد الداكن "للمهزلة الهائلة،" التي تمثّلها الحرب، من خلال سعيها المحموم لضمان السلع الأولية والمصنّعة، التي باتت تمهّد، بماديتها المفرطة، "لأمسيات أعياد الميلاد."

مع صدور ديوانه (ريح تجارية) عام ١٩٤٥، وروايته (الطريق) عام ١٩٤٨ ارتقى مارتينسون إلى مصاف الكتاب الكبار، والجوائز الممنوحة للكتاب السويديين، وفي عام ١٩٤٩ انتخب عضواً في الأكاديمية السويدية. في خريف عام ١٩٥٣ظهرت أولى قصائد (إنيارا) في ديوانه المعنون (زيز الحصاد)، واحتلت فصلاً عنوانه "أغنية دوريس وروح الفضاء"، حيث تصل ذروتها، في التدمير النووي لمدينة دوريسبرغ، كما يسردُ ذلك "المفجّر"، وهو آخر صوت من الأرض يتناهى إلى السفينة الفضائية "إنيارا".

وكما يشير جوهان ريد في كتابه الشامل (أغنية إنيارا) الصادر عام ١٩٦٥ في ستوكهولم، كانت ثمة أشياء كثيرة في عام ١٩٥٣ تقف وراء هذا التأمل الرزين للكارثة. في الثامن من آب أعلن الاتحاد السوفيتي امتلاكه للقنبلة الهيدروجينية وهي "أسوأ بمائة مرة من القنبلة الذرية العادية" وفقاً لافتتاحية صحيفة (سفينسكا)، فيما تقتبس صحيفة (داجنتس ناهيتر) من عالم الفيزياء الأمريكي روبرت أوينهايمر قوله "الساعةُ الذرية تدقّ بسرعة أكبر الآن. وتمكن مقارنتنا (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) بعقربين داخل جرة، كل يملك الفرصة لقتل الآخر، ولكن على حساب موته هو." بعد مرور أربعة أيام، أجرى الاتحاد السوفيتي تجربة إطلاق على القنبلة الهيدروجينية. وكان الفضاء الخارجي حاضراً بقوة في وسائل الإعلام خلال تلك الفترة. في اليوم الأخير من المؤتمر الدولي لهيئات الملاحة الفضائية، الذي انعقد في زوريخ في بداية شهر آب، كشف عالم الفيزياء الفضائية فيرنر فون براون النقاب عن تقدم أمريكي في إنتاج قواعد إطلاق قادرة على إطلاق صواريخ إلى

المدار الخارجي من أجل إصلاح المحطة الفضائية. ويشير ريد إلى مقالة منشورة في (داجينز ناهيتر) تتحدث عن ملاحظات تظهر أن مجرة أندروميدا أبعد وأكبر بضعفين مما كان يُظنّ سابقاً: إنها تبعد (١,٥٠٠,٠٠٠) سنة ضوئية عن (طريق التبانة). في أواخر ذاك الشهر، وجّه مارتينسون تلسكوب منزله باتجاه سماءٍ صافية بشكل غير اعتيادي، ليجد مجرة أندروميدا متلألئة بشكل أقوى مما سبق ورآه في حياته: "بل إنه توجّه وأيقظ زوجته (إنغريد، التي تزوجها عام ١٩٤٢) لكي تشاركه تجربة النظر إلى الفضاء الخارجي. هذه التجربة القسرية عن الفضاء الخارجي حرفت خياله إلى تلك الوجهة، وسرعان ما انتابه الوهم بأنه يمكث على متن سفينة فضائية. في البدء كان هذا الشعور مشوشاً، ومشوباً بالقلق، لكن الرؤى بدأت تصفو وتتكشّفُ في داخله."

الطائرات العملاقة كانت أيضاً في طور الظهور خلال ذلك الصيف. في السابع من آب ظهر إعلان الحكومة الأمريكية عن أول رحلة طيران عبر المحيط الأطلسي، وبلا توقف، في ٢٩ تموز عام ١٩٥٢، من آلاسكا إلى اليابان. وفي ليلة الثالث عشر والرابع عشر من آب عام ١٩٥٣، عبرت أضخم طائرة في العالم، تابعة لسلاح الطيران الأمريكي، ذات محرك سداسي (xc-99)، مياهَ الأطلسي. ومع طائرات عملاقة قادرة على البقاء في الجو لمسافات طويلة، كان من السهل تخيّل مكوك فضائي مثل "إنيارا"، خاصة أن مارتينسون أيضاً شهد الإعلان عن أول باخرة سويدية، عالية الحداثة، هي (غونغشولم) عام ١٩٥٢، أثناء عملية تحضيرها للخدمة من مدينة غوتنبرغ عام ١٩٥٣. وليس غريباً أن تكون باخرة (تيتانيك) السيئة الحظ قد ألهمت فكرته عن مصير "إنيارا"، كما

أشار مارتينسون مرة، بل إنه في رسالة بعث بها إلى ريد في تموز من عام ١٩٦٢ سمّى السفينةَ الفضائية "تيتانيك الفضاء الخارجي التي سبق لمخيلتي أن أطلقتها." إذاً، من أتون مخاوف وعجائب عام ١٩٥٣، كان بمقدور مارتينسون أن يغني مخيلته بتفاصيل كثيرة يحشدها في "أغنية دوريس وروح الفضاء"، وهي بمثابة نشيد عن كارثة نووية، وعن سفن عملاقة تنقل نازحين إلى "البحار الفلكية،" وما يعقب ذلك من كوارث في هذه البحار. إن صور أكثر من نصف قرنٍ اجتمعت هنا وتضافرت، لتضيف أربعاً وسبعين قصيدة إضافية إلى طبعة (إنيارا) عام ١٩٥٦.

خرج العمل إلى القراء في تشرين أول عام ١٩٥٦، وقُدّر له أن يتحول إلى "ظاهرة" ثقافية في غضون السنوات الخمس التالية. وخلّف انطباعاً قوياً لدى النقاد، وساهمت المقابلات الإذاعية والتلفزيونية، إضافة إلى الندوات والقراءات، بجلب الحماس لقاعدة أوسع من القراء. وإذا كانت المبيعات قد تعثرت مع نهاية عام ١٩٥٨، إلا أنها سرعان ما عادت إلى الواجهة، مع افتتاح الأوبرا الملكية السويدية في أيار من عام ١٩٥٩، بعرض افتتاحي للقصيدة قام باقتباسه كارل بيرغر بلومدال، وعُرض لاحقاً في العام ذاته في مهرجان إدنبره، ومن ثمّ في كوفنت غاردن. قُدمت عروض أخرى للأوبرا، وخاصة تلك التي أنجزت باللغة الألمانية في مسرح هامبورغ، وساعدت ترجمة قصيدة مارتينسون إلى انتشار سمعة النسخة الأصلية. ولكن حديث مارتينسون عنها، بلكنة تشوبها المرارة، في عام ١٩٦٢ تشير إلى أنه لم يكن سعيداً تجاه اعتبار هذا العمل الضخم مقياساً لأعماله المستقبلية اللاحقة. في مقابلة أجراها في هلسنكي عام ١٩٦٣، لم يخفِ شكواه، وإن بشيء من المزاح، بأنه

"يعتبر كتابة (إنيارا) أشبه بصناعة سجادة اسكندنافية ضخمة. كل ما بوسعك فعله، بعد ذلك، هو أن تجلس وتقوم بصنع وسائد صغيرة، وسيقول الناس: لماذا لا يقوم بصنع سجادة اسكندنافية ضخمة عوضاً عن هذه الوسائد الرديئة؟"

لم يكن مارتينسون يتوهّم الأشياء. مجموعته الشعرية (العربة) التي صدرت عام ١٩٦٠ حظيت بردود فعل متفاوتة، وبالرغم من نجاح كتابه (مروج)، الصادر عام ١٩٧٣، لكن مارتينسون أُجبر على عدم إنهاء فصوله. بعد أسبوع واحد فقط على ظهوره، نُقل إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية مؤجلة. من الناحية الطبية نجحت العملية، لكنه كان يحتاج لكامل قوته الجسدية لتحمّلها. ولم تكن حتى جائزة نوبل، التي نالها عام ١٩٧٤ بالاشتراك مع صديق قديم، هو الروائي إيفند جونسون، قادرة على إعادة التوازن له. توفي في الحادي عشر من شباط، عام ١٩٧٨.

في قصيدة (إنيارا)، تتحول الرحلة الشعورية التي تنبأ بها، إلى مشهد لخروج أعداد عظيمة من النازحين في قرن بعيد وقصي، بعدما حوّل الإشعاعُ السامّ الأرضَ مكاناً غير قابل للسكنى. وكان من المفترض أن يؤخذ هؤلاء المهاجرون الجدد إلى معسكرات عمل فوق كوكبي الزهرة والمريخ، حتى يتم تنظيف الكوكب من السموم، وهي بمثابة قصة قديمة. لكنهم لن يصلوا إلى المعسكرات البتة. سوف تصبح "إنيارا" سفينة أشباح، مقذوفة خارج مسارها بسبب جرمٍ ساقط، أصاب محركات التوجيه على متنها بالعطب التام. هكذا، سبح طاقم السفينة، مع الركاب، داخل الكبسول المغلق، أبعد فأبعد عن كوكب الأرض، أو

"دورسفل"، أو "زنجبار الكونية"، وهي جزيرة التوابل الوحيدة في الكون، التي تنفجر، والمسافرون يسبحون بعيداً عنها، في آخر حرب نووية.

نتعرف على هذه الأحداث من خلال راوٍ يظهر في القصيدة رقم (١) كواحد من بين آلاف الناس الذين أتوا ليسجّلوا أسماءهم تأهباً لإجلاء محتمل. لا نعرف شيئاً عنه، باستثناء أنه كان مهووساً بعشق جمال هذه الأرض التي تجسدها امرأةٌ أطلق عليها اسم "دوريس" والتي وحدها تشيع الضوء بشعرها الأشقر على الدكنة الكونية. كما أن دوريس تتحدث بذكاء خاص (وإن من خلال مصطلحات صفحة الإرشادات) في الوقت الذي يجلس فيه الجميع صامتين، يساورهم القلق، قبل أن يتم إعلان موعد المغادرة، ليس عبر الكلمات، بل رنين أصوات المحركات، حين يُطلَقُ "جرسُ إقلاع السفينة- الصاروخ." هذه الصور التي كانت تجعل الأرض مكاناً جميلاً- الضوء واللغة- هي التي تستحوذ على مخيلة الراوي. مع ذلك، هو لا يتوقّع الكثير من هذه "الحماقة الجسيمة للعيش"، حتى إنّ هذه العطايا الثانوية بدت جدّ مثيرة.

ولن نعرف هوية المتكلم حتى القصيدة رقم (٦) حيث يكشف عن مهمته، كأحد مستشاري ما يدعى "روح الفضاء"، التي تلعبُ دورَ ناقلة وجامعة خرافية للمعلومات من كل أنحاء الكون. ويتجاوز دوره حدود الآلة، ليكون أحد الثقات المؤتمنين، لأنّ الآلة تتحول ذاتها إلى كائن، حيث تصاب لاحقاً بالعطب الأخلاقي والفيزيائي، الذي يلحقه الإنسانُ بالأرض. هذا المستشار الإلكتروني، الذي يلعب دور الراوي، هو أيضاً مارتينسون نفسه، ومهاراته التقنية، مثل مهارات مارتينسون، توضع في خدمة عقل عظيم في قوته على الربط والخلق، مدفوعاً بالتزام

عاطفي جياش لمعرفة وإظهار أشياء الأرض. لهذا تطلبُ "روح الفضاء" أن يعمّ السلام "باسم الأشياء" لكي يحميها من الدمار: "وشهدت النحيب الحار الأبيض للغرانيت/ حين كان الحجر أو الفولاذ يتبخّر في الهواء. ولطالما نغّص هدوءَها وجعُ تلك الحجارة." (٢٨) وإذا كانت روح الفضاء، كقوة، تمثل انعكاساً لمخاوف وهواجس مارتينسون، فإنّ وظيفة المستشار، كمنسّق عام لهذه المشاهد، تشبه مقدرات الشاعر على الاستحضار والتواصل مع "آلاف الأشياء التي لم يسبق لعين آدمية/ أن حلمت برؤيتها."

إن "روح الفضاء" التي "لا تكذب" (٣)، برفقة مساعدها المؤتمن، تبثّ الإشارات بكل صدق وتكشف عن "صيدها الكوني" (٦) من كل البحار السابحة في المجرات، في حين أنّ الجميع على متن السفينة يمارسون لعبة النكران، ويعبدون روح الفضاء لإثباتها هذا النكران من خلال استمرارية وحسّية بثّها المتواصل. وإذا كانت الحياة تصلهم بكل تلك الدقة، فهذا يعني أنهم لم يغادروا حقاً مدارها. حتى عندما يبدأ المسافرون في نهاية القصيدة (٦) "يدركون ... بأن العالم الوحيد/ ... الذي وُهبنا إياه هو هذا العالم في رحاب الفضاء،" مصرّين على خداع أنفسهم والسعي وراء "عاداتٍ من دورسفل." (٧) وأحياناً يسيئون استخدام "روح الفضاء"، من خلال السماح لها بإبعادهم عن ذكريات مريرة عن الأرض، والاستعاضة عنها بصورٍ مذهلة عن كواكب أكثر سحراً: "لأنّ العالم الذي تظهره لنا الروح/ يمحو العالم الذي نتذكّره، ونهجره الآن." (٧) وقد تحولت قاعة الروح إلى استوديو لتصنيع صور سينمائية تسمح للمشاهدين أن يتوهّموا بأنهم داخل بيوتهم، يرون مناظر

كتلك التي تعودوا عليها في الأرض، وتجعلهم ينكرون على أنفسهم حقيقة كونهم مسافرين.

ثمة أسباب أخرى تقف وراء حاجة أولئك لنكران انفصالهم عن "الشمس والأرض ... ودورسفل." (٢) أما ملكة الرقص على متن السفينة (ديزي دودي) فتصرّ على أن الرغبة العارمة برقصة ما بعد حداثية، تُسمّى (يورغ)، هي نفس الرغبة بتأدية الرقصة التي كانوا يؤدونها في وطنهم، دورسبرغ. وبالنسبة إليها فإنّ "كل ما نسمّيه يورغاً كان فاتناً،" وهي تتلوى خلف خطواتها، "ترمي في خواء الموت كلماتها العامية من دوريسبورغ." (١٢) المستشارُ نفسه يقع فريسة للإثارة الجنسية، والحماس الإيجابي، لهذه العاشقة الحسّية، وارتباطها بواقع مرئي، مهما كان واهياً. لا يستطيع أن يتحدث معها عن شعوره بالعزلة، كما أنه لا يستطيع التحدث إليها عن عزلتها هي، حين انفجرت الأرض وتمزّقت إرباً، وكانت (ديزي) "وهي تنساب حارّة، بعد انتهاء الرقصة،/ لم تكن تعرف أنها نفسها قد ترمّلت بعد اندثار مدينة دوريسبرغ." (٢٧) ويسعى المستشار إلى طلب الراحة الحيوانية بعد شعوره نفسه بأنماط مختلفة من النكران، كالأخبار التي تنقلها القيادة العليا. أما ما يتعلق بالكوارث، فإنّ هذه المصيبة ليست بذاك السوء- بل إنّ هذه المصيبة هي ضرب من الحظّ السعيد: "إننا أناس أخيار. ولم نتحطّم فوق نجم أو جرم سيّار./ غدُنا مازال أمامنا/ في رحلة تستغرق العمرَ كلّه/ صوب نهاية كانت ستأتي لا محالة/ وهاهي ذي قد أتت"(١١). في القصيدة رقم (١٣) يهرب الراوي من محاضرة كان يلقيها كبير الفلكيين، حيث نكرانه المعقّد يصل حدّ تجريد السفينة ورحلتها من أي

معنى على الإطلاق، ذلك لأن العقل، في المقام الأول، غير قادر على استيعاب أي شيء- "المعرفة سذاجة زرقاء/ والتي كانت تفترض، وفق ما تمليه البصيرة على الغاية، بأنّ للأحجية الكونية نسق ما"- ولأنّ "إنيارا"، في المقام الثاني، ليست سوى "فقاعة زجاجية في زجاج الألوهية":

في أيّ زجاجٍ
يظلّ بمنأى عن اللّمسِ لوقتٍ طويل،
تتحركُ داخله بالتدريج فقاعة
وتنتقلُ ببطء إلى نقطةٍ أخرى
عبر الشكل المصقول، وخلال آلاف من السنين،
تكمل الفقاعةُ رحلتَها عبر الزجاج.
وبحال مشابهة، في فضاء لامتناهٍ،
ثمة خليج يبلغ عمقه آلاف السنين الضوئية
يرمي قوسَه حول الفقاعةِ إنيارا أثناء رحلتها.

إن موضوعيةً من هذا النوع تنفي موضوعَها، وهذا ما يدفعُ المستشار إلى الفرار "طلباً للجوء" إلى (ديزي)، وإلى "رحم شعرها، حيث يقينية الموت الباردة لا وجود لها" (١٣).

ويبدو أن الدافع الجنسي ذاته عاجلٌ، على الأقل، إذ لا يوجد ما هو عاجل في فقاعة تتحرّك بسرعة لا نظير لها.

ولأنها لا إنسانية، وغير متدرّبة على حيل البشر، تطلب روح الفضاء، وهي "رسولة من دون غرور" (٩) بأن يتم إنقاذها (٢٨) من

أعمال ورؤى لا يمكن أن يتحمّلها إلا عقل منفصل عن الإنسانية، و"مسبوك من حديد،" (١٦) ومضاد لكل الصدمات والتوسّلات. وبالرغم من أنها حرة من كل ذنب، تموت روح الفضاء موتها النموذجي، المختار، ويجرؤ مارتينسون على التضمين بأنها سوف تولد "بعد آلاف مؤلفة من السنين،" تحت شمس جديدة (٢٤).

وما إن يغيب هذا الرمز للتواضع، تتوغّل السفينةُ الفضائية "إنيارا" أعمق وأعمق في غياهب القلق، لتُترَكَ تحت رحمة الأحجية الغريبة "للدرب الكونية" (٨٢). هذه الأحجية التاوية التي تتجاوز ثنائيات العقل/ المادة، الحياة/ الموت، تنتهكها شخصية الديكتاتور (شيفون)، "معلم حرفتنا الصارم" (٣٠) الذي يظهر في بداية قصائد (إنيارا) بنسختها عام ١٩٥٦، حيث يوجّهُ نداءً بضرورة التقيّد بحكم القانون، والذي لا يتعدّى كونه، ببساطة، أداة لتلبية شعوره السادي الأعمى، وتعبيراً شفافاً لخبثه الكبير. ويستمدّ قوته من بثّه الهتلري للمخاوف في أذهان سكّان إنيارا، مخاوف توحي بأنهم، من دون وجوده، سيذهبون، لا محالة، إلى التهلكة- كأنما سيكونون، برفقته، بأمان كبير، وفي مكان أفضل. و(شيفون) الذي استشاط غضباً جراء انهيار "روح الفضاء"، يوقعُ العقوبة الظالمة بالمستشار المؤتمن، وغيره من الفنيين، بسبب تقاعسهم المزعوم. لكن المتهمين سرعان ما يُطلق سراحهم، ورغم سعادة هؤلاء بهذه الأخبار المفرحة، كان ذلك برهاناً آخر على المعرفة المفقودة للجدل العلمي:

وبعد إصرارنا على براءتنا، أردنا
أن نحاججَ، من دون أن نملك مستنداً علمياً،

وباللغة التي تعلّمها الجميع،
ونطرح أبسط أنواع الأحاسيس.
ولكن هذه اللغة نفسها، المعنية بتوضيح كل شيء،
صارت أكثر وعورةً بالنسبة لنا، بل تشبه غمغمة عميان
يتجنّبون الكلمات، ويخوضون خبطَ عشواء،
وسط وضوح الروح الكونية. (٣١)

وبالرغم من الإيجابية التي قد يضمرها وضوح هذه الروح الكونية وضوحَ المرآة، إلاّ أنها، في واقع الأمر، تعكس بدقة متناهية الوجهَ المحتارَ الذي ينظر إليها. ذلك أنّ الوضوح هو نقابُ الغموض. وكما يكتب كوانغ تسي، فإن "التاو الذي نراه هو ليس بالتاو." وأمام تلك الأحجية، تنهار المعرفة والعلم على حد سواء، ولهذا فإن (شيفون) "محطِّم الجنس البشري" (٩٢)، الذي يرمز للحقيقة غير القابلة للنفاذ، يستعدّ للتوجه، عبر الدرب الكونية، للاحتفال بالذكرى العشرين للحظة إطلاق مركبة "إنيارا" (٨٢). غير أن فشل هذا الطقس الاحتفالي، كان ينبئ، على أي حال، بانكسار هيبة (شيفون) وانهيار حكمه:
عشرات الآلاف كانوا يبكون
والمئات قالوا:
هذا حقاً هو طريق قدرنا.

السفينة إنيارا
استمرت في رحلتها
وأكملت العشرين عاماً اليوم.

العديد وقفوا صامتين.
فجأة نطق أحدهم قائلاً:
السنةُ الضوئية قبرٌ.

لا تصمد تلفيقات (شيفون) أمام التمحيص. فإنّ "جنانه الطائرة" (٥٤)، التي تعتبر بمثابة أمكنة متعة، مخصصة له ولأتباعه، تفترض أرضاً خرافية تسكنها بطلة خرافية يحميها التنين. ويؤخذ المستشار، للحظات إلى هناك، بعدما أعياه الخمرُ، مسحوراً بذاك "الربيع الدائم." غير أنّ "البيضاء الجميلة" التي أحاطت نفسها "بمرجٍ من الزهور الزرقاء" لم تكن إلا أحد مواطني البلد الخرافي (خينومبرا)، ممن هلكوا بفعل الضوء الذري المميت، وكانت بين أولئك الصارخين الذي يطالبون بالانتقام من أشباه المستشار، المتواطئ مع النتائج الأرضية للتقدّم العلمي. لكن (شيفون) نفسه ينهار، متحولاً إلى كائن لطيف، "يشدّ من أزر المرضى، ويدفئ أجساد المتجمّدين" (٩٣) قبل أن يتلاشى ويموت. إذن، حتى داخل "المتبجّح" (٩٢) (شيفون) تقبعُ حقيقةُ لطفٍ غائر، تفعل فعلها بشكل غامض، وتفيض باتجاه تباشير خلق جديد.

الحضور الأكثر وضوحاً لهذا اللطف الغائر في القصيدة غير موجود على متن السفينة. في القسم السابق، وُصِفَت المرأة بأنها "نوبي الصغيرة الشاحبة، المكوية بالإشعاع، وذات الجمال القليل" (١٥) وهي تعاني مثل "دوريس و "روح الفضاء" من القوى الخبيثة التي تستولي على الأرض، وخاصة في النشيد المتواصل تحت عنوان "حكاية يد الفضاء" (٤٠) وتمشي "نوبي" أو "نوبيا" بصفتها عابدة وحامية للطف الطبيعي،

الذي لم يعد موجوداً في الطبيعة المتحوّلة للربيع. وتكتب "نوبي" عن أوراق الصفصاف الفولاذية، بصفتها "من روح الغابة"، وهاهي تُرسَلُ إلى "يد الفضاء"، في شكل تذكارات ترافقها ملاحظات صغيرة. وهذه تحولت بفعل لطفها إلى أمثلة عن الجمال، تماماً مثلما تحوّل "الديكُ الصغيرُ، بنحوله ورشاقته، إلى طائر أزرق، ساطع اللون." ويبدو أن مارتينسون يفكّر هنا بالطائر الأزرق في مسرحية ماترلينك الرمزية عام ١٩٠٨، التي تحمل الاسم نفسه، حيث امتلاك الطائر الأزرق يرمز إلى الانتصار على تفسّخ الأشياء في هذا العالم، مثل مشاعر الحب والعطف واللطف التي تضمرها "نوبيا" في "هذا الوعر من الأشكال الجرداء الساطعة".

ومثلما تحوّلُ "نوبيا" أوراقَ الصفصاف السوداء القاسية إلى أوراقٍ "من روح الغابة"، كذلك تفعل الشاعرة العمياء التي تؤدي "لعبةَ رؤيا أمام عذاب ونحيب" في "أغانٍ تؤلفها في الظلمة عن أرض (رند)" (٤٨). ومثل "نوبيا" أيضاً، فإنّ الشاعرة أمضت ردحاً من الوقت في معسكرات سهول التوندرا. في حالتها، عادت إلى وطنها المهجور في (رند) لتكتشف أن بلادها تحولت إلى توندرا أيضاً، "حيث حياة النبات تضرّرت بكليتها." ذهبت في رحلة لتجمع تبرعات حول مشروع يدعي "أنقذوا التوندرا"، بالرغم من أنّ السخرية الشعبية تسمّيه "ما لم يقدر على فعله أحدٌ، لكنها كانت رغبة الجميع." هي تغنّي الآن، لأسرى على متن "إنيارا"، الذين وقعوا تحت أوامر (شيفون) المجنونة، وأصبحوا موضوعاً للتسلية الجنسية الفارغة، وللكلام البذيء للمهرّج (ساندون) وتهكمه الذاتي، أو نهباً لتلك الأغاني العاطفية مثل "العصفور الصغير

في غابة الورد"- أي شيء يحاكي القدرة الإنسانية، مثل أغنية المتانة الخرافية "أغنية الحديد المصهور التي يردّدها/ أحدُ أهلِ (رند) هنا على متن السفينة" (٤٩). في المشهد الأخير من القصيدة رقم (٤٩) تنشدُ أغانٍ أخرى مختلفة: الأولى موجهة ضدّ (شيفون) المتجبّر، وسلطته القائمة على السادية والدم؛ والثانية، تغني مقطعاً يحتفل بعودة إنيارا إلى الأرض، أكثر الأحداث المرغوبة على متن السفينة، ولكن بالمعنى الذي يشير إلى حس الدفن وإعادة الدخول إلى التراب نفسه الذي صُنِعَ منه آدم في صورة الله الذي يجبلُ الترابَ:

ومع أطرافِ أجسادِهم الملتصقةِ بالتراب
يحتفلون يومياً بإلاههم
الذي فقدَ عينيه
والذي يعرف كلّ الأشياء، و لا يحتاجُ إلى بصرٍ ليرى
أشكالَ الحياة التي ابتكرَ أسمالها.

الأغنية الأخيرة التي تؤديها الشاعرة تتنبأ بعودة "روح الأرض" العفوية، مثل تيار نيرفانا الذي سوف يغمرُ "إنيارا" في المقاطع الأخيرة للسلسلة. من أجل هذه الطمأنينة الداخلية، يسمح مارتينسون لمستمعي الشاعرة بكلمة نفي أخيرة:

يا للكلمات الجميلة التي حضرت لإسعاف مخيلتها
يا للكلمات التي وقعت عليها في أرضِ (رند).
لكنها كلمات فحسب، ومحض قبض ريح.

هؤلاء الناس، مثل الكون الذي يسكنون فيه، لا يريدون الانصياع للرحمة واللطف.

وإذا كان لا بد من تصحيح هذه المباشرة، نتوقف أمام عمل (إساجل)، بصفتها "المرأة-الربّان" للسفينة، حيث تمثلُ تجلياً فكرياً لشخصية (دوريس). ولكن على نقيض "دوريس" في القصيدة رقم (١)، تظهر (إساجل) ضحيةً لكارثة التداخل بين الكواكب، ويعتريها حزن عميق. حتى قبل انهيار "روح الفضاء"، فإنّ الاضطراب العام يمكن رؤيته بوضوح في وجه ربّان "إنيارا"، التي ودّت لو أقدمت على الانتحار هناك، لولا الدعم الذي تمنحه روح الفضاء من "وقود/ للضوء الروحي"، وسط هذا السواد الكوني الذي وجدت السفينة نفسها فيه. إن تقديم (إساجل) الشكر والامتنان لروح الفضاء قادها إلى "حظّها": لقد رُزِقت بطفلٍ ولد من عقلها:

صرخت من الغبطة، تضمّ إلى صدرِها
الإلهامَ المتدفقَ بقوة،
والذي تكوّنَ في أعماقِها
نتيجةَ عشقٍ عميقٍ لقانون "أعداد ألِف". (٣٩)

الطفل، الذي ولد بصحة جيدة، يرمزُ للحقيقة التي يستحيلُ تطبيقها. إنه يوجد على لوح السنوات الضوئية، بعيداً من الأرض الملموسة، حيث الحقيقة وحدها تملك وسائل التعبير عن نفسها:

ولكن هنا، حيث قادنا قدرُنا،
إلى مسارٍ فرضتُه قوانينُ الدوران،

لم يكن اكتشافُها مثمراً، بل مجرد فرضية،
صاغتها (إساجل) بمهارة عالية،
وكان مقدراً لها أن تصحبنا بعيداً
باتجاه "كوكبة القيثارة"، ومن ثم تتلاشى وتختفي.

ولم تستطع (إساجل) أن تتعافى من هذه الصدمة فيما يخص عبقريتها، جراء ظروف قاسية فرضعا عالم ما بعد الأرض. إنها لا تستطيع أن تضع إلهامها في الخدمة، و"طفلها" ولد عبثاً.

ولأن (إساجل) تفقد إيمانها بنشاطها العلمي، فإنها تفوز ببعض الدفء، وتصبح حقاً شقيقة (ليبدل)، التي سبق وحضرت بعض شعائرها. وإذا كان المغني، في "المرثية السرية" من أجل (ليبدل) (٧٣)، الذي يكشفُ عن حسّه بعزلة إنسانية وبالوصول المتأخّر الذي يميز قاطني إنيارا، ينصحُ "النجمةَ" العزيزةَ أنه "داخل متاهة (سينتوري ألفا)/ سوف نذرفُ دموعاً ونبكي"، ففي القصيدة رقم (٨١) يعكس المستشار و(إساجل) المشهد ذاته:

محتضناً بطلتي قريباً من صدري،
كنتُ أتذوّقُ دموعَها الحارّة المنسكبة.
كانت تمثّل دفءَ العيش
الذي يرافقني فوق متن السفينة.

للحظة وجيزة، يستطيع المستشار أن يوقف دموعَها من خلال استلهام الصبر والمقاومة، بل، وحتى تفريغ الكآبة التي هي موضوع

وغاية "العلم الساكن"، والمعرفة الصلبة بأنّ الذنوب يجب أن تتبعها الكفارة. بيد أنّ عقل (إساجل)، المحصّن حتى ضدّ خطط (شيفون) عن إبادات جماعية، والتوجّه مباشرة إلى "شمس مجهولة" (٨٧) ينهارُ، أي عقلها (٨٨)، مجروحاً بكونٍ جلف:

كيف أنّ شظيةً أصابت روحَها،
نثرة اصطدمنا بها في الفضاء
حين اصطدمنا بجرم (ليونيد).

لكنّ لومها لنفسها، وشعورها بالذنب يتفاقم، وينتابها شعورٌ "كالموت." تتوق للتحرر من قلب الأشياء، "حيث تتواجد قوانين (أرقام ألف)"، وتذوب (إساجل) متحدةً بعقل بدئي، يتجاوز القوانين، مؤسسةً لعقل حرّ جديد، يحمل اسمَ الصدفة، "الحاكم الجديد للعالم."

في وجودها السحري الآن، حيث تنتظر الانبعاث في شكل جديد، تقوم بزيارة أخيرة إلى المستشار أثناء حلم، "ينير قلبي/ بأشعّة لا يمكن وصفها." (٩٠) يمثل الحلم، بالنسبة للمستشار، نوعاً من الكشف. تقف (إساجل) مرئيةً تماماً كأنها "ذات روح الفضاء ... أو روح الفضاء ذاتها." إنّ الاثنتين متطابقتان لأن كلاهما تخفيان في أعماقهما جماليات الرياضيات الصافية، والحساسية الأخلاقية الشفّافة، وهما "يموتان" من أجلها في النهاية. كلاهما، كما تشير آنا تورنغرن، تلعبان دورَ المتقصّي. في القصيدة رقم (٥) تُضاءُ عيني (إساجل) "بنيران ظمأى تبحث عما يوقد الضوء الروحاني/ خشية أن ينطفئ النور." في القصيدة رقم (٦) نجد روح الفضاء "تبحثُ، وتبحثُ، وتبحثُ" عن

إشارات الحياة التي يمكنها أن ترفع الحيف عن المسافرين القلقين. كلاهما تستخدمان قوة التفكير، المستمدة من العمليات المادية، سواء أكانت كهربائية أم بيو-كيميائية، لإعادة الاتصال بالعالم المادي، مع الأشياء، لأنّ جوهر العالم قائم على اللطف الفعّال الذي يربطنا به. فالمادة مشحونة بالروح: إنها البيت الذي يحضنها. حين ترتحل أشياء العالم إلى مكان آخر، فإن (إساجل) و (روح الفضاء) تذهبان إلى هذا المكان الجوهري، حتى ينبلج عصر جديد.

كان من المفترض أن يكون القرن العشرين بمثابة هذا العصر الجديد، غير أن التقدم العلمي المذهل الذي شهده قد جرّد "الأشياء" من واقعيتها المطلقة. ففي عالم يتقدم تكنولوجياً باستمرار، فإن الأشياء "تتلاشى ببساطة" و "يبقى الشاعرُ وحده وفياً لها." (غادامر، هرمينيوطيقيا فلسفية، ٧١) إنّ الثقة المطلقة بعلم الميكانيك الكوني الذي أظهرته فيزياء نيوتن أو الفيزياء الكلاسيكية قد تعرضت للخلخلة على يد كل من بلانك وهيزنبرغ، وآخرين. إن فكرة آينشتاين عام ١٩٠٥ عن تساوي المادة والطاقة قد نسفت الفكرة القديمة عن الجوهر المادي الثابت للأشياء. وكمثال على ذلك، نسوق كلام تورد هول التالي: "إن فرضية دي بروغلي عن أمواج المادة، تعززّ أكثر الطبيعة الحلمية البدئية للعالم المادي. إن كتلة من الرصاص هي نسيج يشبهُ كثيراً مادة الأحلام." (العلم والشعر، ٨٤)

إن رجلاً مثل مارتينسون، الذي أظهر كراهية فطرية تجاه عبادة الآلة، وتجاه فكرة ماركس عن الشاعر بوصفه مهندساً للروح، ومنسقاً لإيقاعات العقل في تحوله إلى وسيلة لخدمة الدولة والخير الاجتماعي، قفز إلى حرية قصوى كان قد اختطها علماء فيزياء سابقون: "بالنسبة

للشاعر، فإنّ هذا التطور في العلوم الطبيعية يخفي جانباً سلبياً وآخر إيجابي. أما الجانب السلبي فيتمثّل، بالطبع، بالطبيعة التجريدية لصورة العالم (الجديد) لأنّ الشاعر يودّ دائماً أن يجعل الأشياء مرئية، إذ هو يسعى لاصطياد الصور أو الرؤى. أما الجانب الإيجابي فيكمن في الفرصة المتوفرة للفنان في تحرير الأشياء التي تأخذ شكل الأطياف كما يرغب، وهذه نتيجة لقدرة عالم الفيزياء على تجنّب إعطاء توجيهات واضحة عن الكيفية التي تظهر فيها صورة العالم." (٨٤-٨٥)

إن النظرة التاوية الكونية للوجود هي التي أثارت مخيلة مارتينسون أكثر من أي شيء آخر. والواقع أنّ غانر تايدستروم يقول إن عدد المقالات التي كتبها مارتينسون في عقد الأربعينيات، معبراً عن تعاطفه مع هذه النظرة، ارتقت إلى نوع من العمل التبشيري الناطق باسمها. التاوية، بالطبع، هي أصل مفهومي "ين" و "ويانغ"، وهذان يمثلان نقيضين: "ين" يرمز للسواد، والبرودة، ومبدأ الأنثى، و"يانغ" يمثل مبدأ الضوء، والحرارة والذكورة؛ أو "ين" يرمز لنشاط الأرض، و"يانغ" يرمز لنشاط النجوم والكواكب. التاو نفسه، الذي يمثّل وحدةً تنظّم هذين الضدّين، يُترجَم بوصفه "طريقةً"، و "قانوناً". على متن "إنيارا"، فإن الأرض التي تنسحب رويداً، رويداً، باتجاه الأضواء المشوّشة للمجرّة (١٩) تصبح بالتدريج ما كانت عليه دوماً، جزءاً من تلك السماوات التي يُطلَق عليها "روحُ الله." هنا تصبح الأرض- "ين" والنجمُ- "يانغ" شيئاً واحداً، في هذا المثال الهام عن اختفاء (دوريس)، التي كانت هي الأخرى في حالة انسحاب. هكذا أيضاً يجتمع العنصران في شخصية (إساجل)، المفكّرة المرهفة و "الخادمة المخلصة في مزرعة الأرقام" (٣٩).

وخلال تعانق هذين النقيضين نرى (إساجل) التي قُدّمت كمفكّرة عقلانية، متحفّظة، تقوم أيضاً بدور الأنا البديل ل(دوريس) المتوثبة، السعيدة، المتحمّسة حسياً. هذه الشخصية، (دوريس)، التي ترمز، بالنسبة لمارتينسون، للبعد البدائي، لا يمكن الاقتراب منها كثيراً، أو عشقها بشكل فائض. مع ذلك، فإن البشر أداروا ظهرهم لها، واقعياً، عبر تحليق "إنيارا" وطيرانها المتخيّل، وأخلاقياً من خلال الدمار الذي لحق بها، إما من خلال أعمال الحرب أو من خلال التقدم العلمي.

يصف بول تيلليش هذا الخطأ في الإشاحة بعيداً عن كوكب الأرض، يصفه بالأزمة الروحية لإنسان منتصف القرن- وهي تتجلّى في مشاريع استكشاف الفضاء: "إن إحدى النتائج المترتبة على ارتياد الفضاء، واحتمال النظر سفلياً إلى الأرض، هو نوعٌ من الاغتراب بين الإنسان والأرض، وجعل الأخيرة موضوعاً منفصلاً عن الإنسان، وحرمانها من شخصية "الأمومة"، وطاقتها على الإنجاب، والحنوّ، والمعانقة، والحفاظ على نفسها، ومناداة نفسها. إنها تصبح جسماً مادياً ضخماً يصلحُ للنظرِ فحسب، وللعمليات الحسابية." (آثار استكشاف الفضاء، في كتاب مستقبل الأديان، ٤٥)

يتنبّأ تيلليش، كما مارتينسون، بأنّ النتيجة السلوكية لخسارة الأرض، وأشياء الأرض، في عالم تستحوذ عليه الجماليات التجريدية لعلم الفيزياء الذكي، ستكون "عدم الاكتراث، والتشاؤم، واليأس،" وهذا ما يصيبُ المسافرين الحزانى، على متن سفينة الموت، لمؤلفها مارتينسون.

ستيفن كلاس

١

لقائي الأول مع عزيزتي (دوريس)
ينضحُ بضوءٍ يجعلُ الضوءَ نفسَه أكثر فتنةً .
لكن دعوني ببساطة أحكِ عن لقائي
الأوّل والبسيط حقاً بعزيزتي (دوريس)
حيث يشكّلُ الآن مشهداً يمكن للجميع أن يروه
أمامهم ، كل يوم ، في جميع قاعات الانتظار
للاجئين يتدفّقون باتجاه مهابط الإقلاع
في مهمات عاجلة إلى الغلاف الجوي للمناطق القطبية
في السنوات الحالية ، حيث الأرض ، غير النظيفة
بفعل الإشعاعات السامّة ، تنتظرُ أن تُمنَحَ
وقتاً للهدوء والسكينة والعزلة .

(دوريس) تملأ البطاقات ، أظافرُها الخمسةُ الصغيرة
تتلألأ مثل مصابيحِ خافتة في الشفق المكتظّ .
تقول : وقّعوا أسماءَكم تحت هذا السّطر هنا ،
حيث الضوء ينسكبُ من شعري الأشقر .

وتقول : مطلوب منكم أن تحتفظوا بهذه البطاقة ،
وإذا حدث ووقع مكروهٌ ، كذاك المذكور هنا
في الصفحة مائتين وثماني ،
منذراً بفوضى تحيقُ بزماننا وحالتنا ،
عليكم أن تأتوا إلى هنا ، وعلى الهامش المتروك
سجّلوا ما يجول تماماً في خواطركم .
المنطقة التي تفضلون الذهاب إليها على المريخ ،
فالسهوب القطبية ، شمالاً وجنوباً ، تمّ تحديدها هنا .
جرّة من التراب غير الملوّث
مطلوبة من كلّ منكم ، كما هو مبينٌ هنا .
على الأقل ثلاثة أقدام مكعّبة ، أضع ختمي فوقها ،
ستكون حصّةَ كلّ مسافر .

تنظرُ إليّ بذاك الازدراء الذي يصبغُهُ الجمالُ
بسهولة عندما ينظرُ حوله
إلى بشر يتكئون على عكاكيز مقوّسة مقلوبة
يتدافعونَ ، صعوداً وهبوطاً ، عند مدرجات المهبط .
إنها تراقب أفواجاً من البشر ، بأعداد ما تفتأ تتزايدُ ،
يتوارون ، عبر مخرج النجاة ، في طريقهم إلى عوالم جديدة .

هكذا ، الحماقةُ الجسيمةُ للعيش
بدت واضحةً للعيان لكل هؤلاء ،

ممن أمضوا ردحاً من السنين
يبحثون عن منفذ واحد يمنحهم
بصيصَ أملٍ للعبور إلى تلك القاعة
حيث المسافرون المُسجّلون
ينهضون هلِعين في كل مرةٍ يسمعون فيها
صفّارةَ إنذارِ الصاروخ تعولُ .

٢

تنغلقُ السفينةُ إنيارا ، ويطلقُ جرسُ الإنذار إشارتَه
إيذاناً بالخروج من المهبط وفق الروتين المعروف ،
بعدئذ يضعُ المدوّرُ الجيرسكوبي المحطةَ في مسارِها
صعوداً باتجاه سمت الضوء ،
حيث الالكترونات المغنيطيسية التي تحجبُ كثافةَ الغلاف
سرعان ما تشير إلى مستوى الصّفرِ ، ويحدثُ الإطلاق .
ومثل دودة عملاقة ، بلا وزن ،
وبدون ذبذبات ، تسبحُ إنيارا طليقةً في مدارها ،
حرّةً من أيّ تدخّلٍ على الأرض .
إنها بداية روتينية صِرف ، بدون أية مخاطر ،
وتحررٌ جيروسكوبي طبيعي من الغلاف الجوي .
من كان يتخيّلُ أنّ هذه الرّحلة بالذات
مقدّرٌ لها أن لا تشبهَ أية رحلة فضائية أخرى ،
حيث ستفصلُ عرانا عن الشّمسِ والأرضِ ،
وعن المريخِ والزّهرةِ و(دورسفِل) .

٣

انحرافٌ عن جرم (هوندو)
(المكْتَشَف حديثاً) أخرجَنا عن المسار .
ابتعدنا كثيراً عن المريخ ، وانحرفنا عن مداره ،
ولكي نتجنّب حقلَ المشتري
توقّفنا عند منحنى (I.C.E) الثاني عشر
داخل الحلقة الخارجية لفلك (ماجدلينا) :
ولكن بسبب اصطدامنا بفيض عظيم من الأجرام
قطعنا مسافة أبعدَ باتجاه النقطة التاسعة .
في حقل (ساري) السادس عشر
أقلعنا عن كلّ محاولة
للعودة إلى الوراء .
وفيما كنا نتمسّك بسمتِنا ،
راحت حلقةٌ من صخور
ترسمُ صورةً ناتئةً
وودنا منذ البدء أن نصلَ إلى مركزها الخاوي .
واستطعنا الوصولَ ،

ولكن عند تلك الزوايا الشاهقة
تسبّب عبورُنا بانهدامِ وحدة (سابا)
التي قوّضتها بقسوة حِجارةُ الأفلاك
والانهمارُ العظيمُ لحصى الفضاء .

عندما انزاحت حلقةُ الصخور
وانكشفَ الفضاءُ
لم يكن بمقدورنا البتة أن نعود أدراجنا .
توقفّنا هناك ، مصوبين أنف السفينة المخروطي
باتجاه (كوكبة القيثارة)
بعد فقدان كلّ أملٍ بتغير المسار .
توقفنا في الفضاء الجامد ، ولحسن طالعنا
كانت ديناميات الجاذبية لا تزال تعمل ،
كما أنّ مُشغّلات الحرارة ، وكذلك الإضاءة ،
لم تكن قد تعطّلت .
ولكن بعض الأجهزة أصابها الضرر
وبعضها الآخر كان قابلاً للترميم .
والآن ، لا يمكن تغيير مصيرنا المنحوس .
لكنّ روح الفضاءِ حولنا ستحملنُا
(كما كنا نأملُ) حتى النهاية .

٤

بتلك الطريقة أغلق النظامُ الشمسيُ
بوابتَه المقنطرةَ ، من الكريستال الصّافي ،
وفصلَ عُرى ملاّحي إنيارا
عن كلّ وعودِ الشمسِ وقيودِها .

مبهورين أمام صدمةِ الخواءِ الناتئ
أطلقنا إشارةَ السفينة إنيارا بعيداً
في اللانهاية الزجاجية الصافية ،
ولكن لم يجبنا أحدٌ .

وبالرغم من أنّ ذبذبات الفضاء
تكفّلت وفيةً بحمل إشارة إنيارا الأخيرة
راحت السفينةُ تسبحُ فوق حلقاتٍ تتّسعُ ،
وعبر أفلاكٍ وقبابٍ كثيرة ، مقذوفةً في فضاءات خاوية .

إشارةُ الذّعر التي أطلقناها من إنيارا
خفتت وتلاشت نهائياً : إنيارا .

٥

كان الملاّحون أكثر رباطةَ جأشٍ منّا ،
هؤلاء القدريون من آخرِ طينة
جبلتها وحدها الفضاءاتُ الشّاسعة
تحت تأثير القوّة المنوّمة للنجوم
على أرواحٍ إنسانيةٍ متلهّفة للأسرار .
بل إنّ الموتَ نفسه وجدَ مكاناً طبيعياً له
في نظام خطّتهم ، كصفاءٍ جليّ مستديم .
غير أنّ المرءَ يمكنه أن يرى ، بعد مرور سنوات خمس ،
أنّ هؤلاء أيضاً يقفون في أعلى برجٍ للخوف ، وينظرون .

في بعض لحظات شرودهم ،
عندما كنتُ أحدّق بهم ، وأقرأ ملامحَ وجوهِهم ،
كنتُ أرى الحزنَ يتلألأ كالفوسفور
من عيونهمِ الساهمة .

ولشدّ ما تجدُ ذلك لدى المرأة– الربّان .
لطالما كانت تجلسُ وتحدّقُ بالفضاءِ حولها

وسرعان ما تتبدّل نظرةُ عينيها الجميلتين .
عينان تخزّنان غشاوةً غامضةً من السّديم ،
وترى القزحيةَ وقد فاضت بنيرانٍ باكية ،
نارٌ ظمأى تبحثُ عمّا يوقدُ الضوءَ الروحاني ،
خشيةَ أن ينطفئَ النورُ .

قبل سنةٍ أو نحوها ، قالت مرّةً
إنها لا تمانع شخصياً
أن ننزعَ القشرةَ عن حبةِ الموتِ المُرّةِ
ونجعل ذلك عشاءَ وداعِنا ، ونمضي .
ولا بدّ أن كثيرين غيرها انتابهم الشعور نفسه-
غير أنّ المسافرين
وجميع المهاجرين السّذج على متن السفينة
الذين لا يفقهون حتى كيفَ رُمينا هناك ،
كانوا يؤمنون بأنّ لحجرة القيادةِ واجبَها المُلزِمَ
وبأنّ واجبَ القمرةِ الآن أزلي .

٦

نبّهتنا روحُ الفضاء ((Mima)إلى إشاراتِ حياةٍ
انبسطت بعيدةً وشاسعةً .
ولكن أين؟ لا تنبس روحُ الفضاءِ ببنتِ شفة .
كنا نلملمُ بقايا أصداءٍ ، وصورٍ ، ومشاهد ، ومزق لغات
متداولةٍ في مكان ما ، ولكن أَين؟
كانت روح الفضاءِ الوفية
تفعلُ ما بوسعها ، وتبحثُ ، تبحثُ ، تبحثُ .
ونشاطها الإلكتروني يعملُ ،
والعدسات الكهربائيةُ تمدّها بخلايا فاحصة
وتجمعُ برامجُها المشفَّرةُ وآلياتُ التكثيفِ
جوهرَ الشبكة الثالثة الحيادية
فتندفعُ الصورُ والأصواتُ والروائحُ
من صميم الفيوضات الثرية .
ولكن أيِ هيِ منابعها؟ هي لا تعطي إجابةً .
هذا يقعُ دائماً خارجَ سلطةِ تقنياتها
وخارج قوتها الدافعة .

إنها تصطادُ أسماكَها مجازياً
في بحارٍ أخرى غير تلك التي عبرناها ،
وتجهّزُ ، مجازياً ، شبكةَ صيدِها الكونية ،
من غابات ووديان في أقاليمَ لم تُكتَشف بعد .

أنا أقومُ على خدمتِها ، وأهدّئ من روعِ المهاجرين ،
وأمتّعهم بمناظرَ من مناطقَ جدّ بعيدة ونائية ،
عن آلاف الأشياء التي لم يسبق لعين آدمية
أن حلمت برؤيتها ، وروحُ الفضاء لا تكْذبُ .
والجميعُ يفهمون ذلك : إنهم يعرفون أنّ روح الفضاء
لا يمكن رشوتها ، لأنها وفاءٌ خالص .

وهم يدركون أن رهافتها الذهنية والإلكترونية
في البثّ والنقل تفوق بثلاثة آلاف وثمانين مرّةً
قدرةَ الجنس البشري ، لو قُدّرَ له أن يحلّ مكانَها .
وكمن يقفُ أمام عتبة مذبح
تراهم ينحنون إجلالاً في كلّ مرّةٍ أدخلُ
وأوقظُ روحَ الفضاء .
مرّات عديدة سمعتهم يتهامسون :
تخيّلوا لو أنّ أحداً منّا كان مثل تلك الروح .

وكان أمراً حسناً أن ليس لهذه الروح مشاعر ،
وأنّ الغرور لا مكان له في داخلها ،

وأنها كانت ، كأنما بحكم العادة ، تبثّ
صوراً وروائحَ ولغاتٍ من بلدان غير متكشفة
وترتّبُ كلّ هذا غيرَ عابئةٍ بالتملّق
تحميها عفّتها ، و لا يعكّر صفوها أية مداهنة .

في هذه الغرفة المظلمة لم تكن لتعبأ
بأنّ زمرةً من عَبَدتِها ينحنون أمامَها ،
يتباركون بنصبِها ويصلّون
سائلين مشورتها في استكمالِ الرحلة
التي دخلت عامَها الطويلَ السادسَ الآن .

غير أنني رأيتُ كيف أنّ كلّ شيء قد تغيّر فجأةً ،
وكيف أنّ كلّ هؤلاء المهاجرين ، وكلّ هؤلاء الناس ،
قد أدركوا أن الماضي انتهى إلى غير رجعة ، ولن يعودَ ثانيةً ،
وأن العالم الوحيد الذي وهُبنا إياه الآن
هو هذا العالم في رحابِ الفضاء .
وفيما كنا نبحرُ باتجاه موتٍ أكيد
في فضاءات بلا يابسة أو سواحل
كانت ربّةُ الفضاء تملك القدرةَ على مواساةِ كلّ روحٍ
وهدهدةِ كلّ قلبٍ إلى سكينةٍ ورباطةِ جأش ،
قبل أن تحلّ الساعةُ الأخيرةُ
التي يجب أن يلقاها كلّ حيّ في النهاية
أينما حلّ به المقامُ .

٧

كنا لا نزال نمارس العادات المتبعة على الأرض
ونستفيدُ من طقوسِ (دورسفل) .
قسّمنا الوقتَ إلى ليلٍ ونهارٍ
ورحنا نتوهمّ بزوغَ النهارِ والغَسقِ والغروبِ .
وبالرغم من أن الفضاء حولنا ليلٌ أبدي
يشعّ بالبردِ القارسِ حتى إنّ الذين ما زالوا
يخضعون لنظام (دورسفل) لم يروا له مثيلاً أبداً ،
ظلت قلوبُنا تدقّ على وقعِ الكرونوميتر ،
الآلة التي تقيسُ الزمنَ ،
في اقتفائنا شروقَ الشّمسِ وطلوعَ القمرِ ،
واقتفاء غروبهما كما يُشاهَدُ من (دورسفل) .
الوقت الآن ليلٌ صيفيٌ ، أو ليلةُ منتصفِ صيف ،
حيث يظلّ الجميع أيقاظاً ساعةً بعد أخرى .
إنهم يرقصون جميعاً في قاعة الاجتماع الضخمة
ما عدا أولئك الذين يتناوبون الحراسةَ على اللانهاية .
إنهم يرقصون هناك حتى تشرقَ الشمسُ

في (دورسفل) . ثمّ ، فجأةً ، تنجلي الرؤيةُ ،
والرعبُ المصاحبُ بأن لا تنجلي أبداً ،
وإدراكُنا بأنّ الحياة
التي كانت من قبلُ حلماً في وديانِ (دوريس) ،
ليست سوى حلمٍ هنا في قاعات الفضاء حولنا .

وسرعان ما تضجّ هذه الرقصةُ في أحضانِ اللانهاية
بالنشيجِ والأحلامِ الإنسانيةِ
وبالنحيبِ العلني الذي لم يعد يخفيه أحدٌ .
هنا يتوقّفُ الرقصُ وتموتُ الموسيقى ،
وتفرغُ القاعةُ ، ويعودُ الجميعُ إلى روحِ الفضاء .
وتروحُ الروحُ تهدهدُ الكآبةَ إلى حين ،
وتقتلعُ الذكريات من شواطئ (دوريس) .
لأنّ العالمَ الذي تظهرُهُ لنا "الروحُ" عادةً
يمحو العالمَ الذي نتذكّرهُ ، ونهجرُهُ الآن .
لولا ذلك ، لما استطاعت أن تجذبَنا إليها
ولما كان أحدٌ قد عبَدَها ككائنٍ مقدّس ،
ولما تحلّقت النسوةُ المتضرّعاتُ حول منصّتِها
وهنّ يرتجفن أمامَها بالبَرَكات .

٨

أرواحُنا ننفقُها في الأحلام ،
أبداً نمحو حلماً بحلم
لحاجتِنا إلى ما هو حقيقيّ ،
وكلّ إيماءةٍ جديدةٍ تصبحُ سلّماً
باتجاه آخر خواءٍ مسربلٍ بالحلم .
ويصبحُ كلّ ما هو بعيدٌ وناءٍ بيتاً لنا ؛
وراء التخوم تكمنُ طمأنينتُنا حقّاً–
إني أشاركُ (دورسفل) كلّ حزنٍ من أحزاني ،
وما شوقُ الارتحالِ الأبدي هناكَ
سوى علامة صحةٍ هنا ، وفن راقٍ للعيش .

وقلّما كنا نعيرُ انتباهاً
لمعجزة السفينة النبيلة ، معجزتنا ،
إلاّ خلال الصلوات على قبرٍ
حيث كان هذا العالمُ
ينبلجُ أمامنا بصفتِه كلّ ما نملكُ ،

وسرعان ما كانت تجتاحنا جمهرةٌ
من الأفكار السوداء
عبر هذه السراديب التي توثقنا
مسكونةً بأصداءِ حياة فائتة
وتنسجُ حولنا خواءً خارِقاً من صوت .
ثمّ نهرعُ إلى أحضانِ الروحِ
متوسلين السّلوى التي يمكن أن نراها ،
وقد لا نصل إليها أبداً .

آلافٌ يتقاطرون بحركة دائرية
عبر كلّ ردهة مؤدية إلى قاعة الروح .
وسرعان ما نتذكّر في لحة خاطفة
أنّ طولَ هذه المركبة ستة عشر ألفَ قدم ،
وعرضها ثلاثة آلاف ، وناسُها
الذين يتقاطرون عبر السّراديب ثمانية آلاف ،
وأنّ السفينة بُنيت من أجل هجرة واسعة النطاق ،
وأنها مجردّ سفينة واحدة من بين آلاف السفن
التي تتمتّع بالخصائص نفسها ، وبالحجم نفسه ،
تشقّ طريقها عبر الأثير باتجاه المريخ والزهرة ،
وأننا الوحيدين الذين خرجنا بعيداً عن المسار
قبل أن يعلمنا الإسطرلابُ العالي أننا لم نعد
ضمن أجواء الفضاء الداخلي ،

وأنَّ كل ما يمكن فعله يجب القيام به ،
وبالتالي ستكون الحياة في الفضاء الخارجي
رحلةً رائدةً ، واستكشافاً ،
وهي الأبعد ، حتى الآن ، فيما وراء الفلَك الأبعد .

حين اكتشفت غرفةُ القيادة العليا فيما بعد
أنه ليس ثمة من رجعةٍ إلى الوراء البتة ،
وأن القوانين الناظمة في الفضاء الخارجي
مختلفة عن تلك التي تتحكّم كلياً
بروتين التحليق السلسِ في الفضاء الداخلي ،
انتابنا الذعرُ أولاً ، ومن ثمّ اللامبالاة ،
التي رمت بين أعاصيرِ اليأس
عالَمها الراكدَ ، والباردَ ، من العواطف الميتة ،
حتى أتت روحُ الفضاء ، كصديقٍ وقت الحاجة ،
طافحةً بذرات الحياة من عوالم أخرى ،
وراحت تهدّئ من روعِنا ،
كاشفةً عن رؤاها الخبيئة .

٩

لروحِ الفضاء خصائص فريدة
جلبتَها معها ، والتي تعملُ هناك
وفقَ دارةٍ خاصةٍ لم يعهد لها
الفكرُ الإنساني مثيلاً من قبل .
مثلاً ، خذ عملَ الشبكة الثالثة
في تنشيط آليات التركيز ،
واستطاعة المدوِّر التاسع على القراءة الحركية
أثناء لحظة التذبذب ، قبل أن تطغى الخلية الفاحصة
على كل شيء وهي تحذفُ وتدمجُ .
المبتكرُ نفسُهُ أخذتْهُ الدهشةُ تماماً
حين اكتشفَ أن نصفَ هذه الروح
التي كان قد اخترعها عصيٌّ على التحليل ،
وأنها قامت ذاتياً بابتكار نصفِها الآخر .
وكما يعرف الجميعُ ، الآن ، بدّلَ رتبتَه ،
وامتلك التواضعَ لأن يدركَ أنها ،
ما إن امتلكت شكلَها النهائي ،

أصبحت هي الأعلى ، وهو نفسُهُ
مجرّدُ قو   ة ثانوية ، وتابع فحسب .
التابعُ مات ، وروحُ الفضاءِ ظلت حيّةً .
التابعُ مات ، والروحُ ابتكرت أسلوبهَا
وتقدّمت في اكتناهِ ذاتها ،
وإمكانياتِها ، وحدودِها .
رسولةٌ من دون غرور ، عادلةٌ ودؤوبٌ ،
مستكشفةٌ صبورةٌ ، شفافةٌ ومرنةٌ ،
منقّيةٌ حقائق ، ولا تشوبهُا شائبةٌ .
من سيلومني إذن ، أنا خادمُ
ومستشارُ الرّوح على متن إنيارا ،
إذا أظهرتُ تأثّراً لمرأى الرجال والناس ،
ممتلئين بإيمانهم ، يخرّون ساجدين أمامَها .
أصلّي مثلهم حين يركعون للصلاة ،
وأتوسّل بأن تُلبّى صلواتهم ، في ظلّ كلّ ما يحدث ،
وبأن هذه البَرَكة التي تغدقها الروحُ
هي ومضات من ضوءٍ لبرَكَةٍ كاملةٍ
تحرسنا هنا في البيتِ القاحلِ للفضاء .

١٠

مفزعٌ هذا الخواء القاحل للفضاء .
وزجاجيةٌ تلك النظرة التي تحيقُ بنا ،
باردةٌ وساكنةٌ أنظمةُ النجوم المعلّقة
خلف النوافذ الدائرية لسفينتنا .
ومن ثمّ يحينُ وقتُ تصيّد الرؤى في الأحلام
القادمةِ من (دورسفل) ، وحفظِ كلّ حلمٍ ،
وكلّ دفقة شعور ، هنا في البحر ،
حيث لا ماءَ ، لاً موجَ يتحرّك .
أوهى آهة هي بمثابة ريح عليلة ،
والنحيبُ بأسره نبعٌ ، والّسفينةُ نفسُها غزالٌ
يطيرُ كالسّهم باتجاه كوكبة القيثارة ،
التي لم تتحرّك قيد أنملةٍ من مكانِها ،
تلك البعيدةُ والنائيةُ التي يصعبُ على العقل البشري
أن يقيس مكانَها وزمانَها .

بدا كلّ شيءٍ كأنه تحجّرَ
أو تجمّدَ في هيئة جبلِ الأبدية ،
مثل حباتٍ من اللؤلؤ في غمدٍ كريستالي
يحيطُ باللانهايةِ نفسِها
داخل قاعة عملاقة مشعّة من المسافة .
غير أنّ كلّ الكلمات التي استُهلكت ،
أو الكلمات التي أسيء استخدامها في الجبال
أو فوق مسارات المياه واليابسة ،
استُرجعَ بهاؤها على يدِ بشرٍ
ليست لديهم فكرة بأن الكلمات التي أنهكوها يوماً
يمكن أن يحتاجوا إليها لاحقاً ،
كلّ مفردة في مكانِها المناسب : هنا تماماً ،
على متنِ هذه السفينة الفضائية
التي تشقّ طريقَها باتجاه كوكبةِ القيثارة .

ما الذي تبقّى لنا ، نحن الذين نحتاجُ
كلّ كلمةٍ تقرأ لغزَ مثوى الأموات في الجحيم ،
هناك في القصيّ البعيد؟

مجبرون نحن للبحثِ عن كلماتٍ أخرى
قادرة على أن تحتوي وتضمّ كلّ شيء
وتجلب لنا الطمأنينةَ .

الكلمةُ الدالّةُ على "النجمة" صارت الآن نابية ،
ورفيعة تلك الأسماء الدنيا
الدالّة على نهدي المرأة وفخذيها .
صار الدماغُ عضواً مخجلاً في الجسد
والجحيمُ يحصدُ أرواحَنا وفقاً لوصية منه .

١١

رجلٌ من غرفةِ القيادة العليا يقف وسط الناس
في قاعات الاجتماع الضخمة في مؤخرة السفينة .
يتوسّل إليهم أن لا ييئسوا ، لكنه يرى قدرَهم
في الضوء الجلي للعلِم . ويجادلُ بأنها ليست المرة الأولى
التي يحدث فيها شيءٌ من هذا القبيل .
قبل ستين عاماً ضلّت سفينةٌ عملاقةٌ طريقَها
وعلى متنها أربعة عشر ألف شخص ،
حيث أصيبت بالعطب في أحد محرّكاتها
وهي في طريقها إلى كوكب "الجوزاء" ،
وراحت تهوي بأقصى سرعتها باتجاه المشتري ،
حيث ابتلعتَها رمالُه القاحلةُ ، ودُفِنت تحت القشرة السميكة
لهذا النجم العملاق ، المغطى بلحافِ الموتِ الشرير
المكوّن من هيدروجين متجلّد ،
وعلى عمقِ ما يقربُ عُشرةَ آلاف ميل
يحمي هذا الكوكبَ الشريرَ بدرع من الهليوم والبرودة .
كان يمكن أن تقع الكارثةُ عينُها هُنا .

لكننا أناس أخيار . ولم نتحطّم فوق نجمٍ أو جرمٍ سيّار .
غدُنا ما زالَ أمامنا ،
في رحلةٍ تستغرقُ العمرَ كلّه
صوب نهايةٍ كانت ستأتي لا محالة ،
وهاهي ذي قد أتت .

١٢

تعزفُ الأوركسترا تخيّلاتنا ونستعدّ للرّقص .
الفتاة التي أقودُها هي سيدة الحفل .
إنها تنحدرُ في الأصل من (دوريسبرغ) ،
وبالرغم من أنها رقصت هنا لسنوات عديدة
في قاعة إنيارا ، لكنها لا تزال تصرّ
بأنها لا تجد أي فرق على الإطلاق
بين رقصة (يورغ) التي يؤدونها هنا وتلك
التي تألفُها في (دوريسبرغ) .
وكلما رقصنا اليورغ ، كان واضحاً
أنّ كل ما نسمّيه يورغاً كان فاتناً
عندما تتلوى (ديزي دودي) على إيقاع اليورغ
وتغمغُم بكلماتٍ عاميةٍ من (دوريسبرغ) :

دائماً تخرجُ وتعودُ مريضاً ومرهقاً .
ولكن افعل مثلي ، أنا لا أجلسُ أبداً ، وأتجمّدُ .

لستُ طفلةَ النوم ، تقول (ديزي) عابسةَ الوجهِ ،
نایاتي تعزفُ ، وأنا لهبٌ وسفينةٌ ،
حبيبي متشرّدٌ ومصيري مجهولٌ ،
أستحمّ بالدمع ، وأتزيّنُ بالورد .

واليورغ رقصةٌ شهوانيةٌ ، وأنا نهبٌ للعاصفة ،
الحزنُ الذي أرعاه أخشى أن يضيعَ هباءً
في طريق هذه المرأةِ الطفلة ، المكتنزة باليورغ ،
وهي ترمي في خواء الموت كلماتها العامية من (دوريسبرغ) .

١٣

في سنتها السادسة كانت إنيارا تبحرُ
بسرعة لا تنقصُ باتجاه كوكبة القيثارة .
رئيسُ الفلكيين على الدكّة أعطى المهاجرين
محاضرةً عن عمق الفضاء الخارجي .
في يدِهِ كان يحملُ إناءً زجاجياً فاتناً :
إننا بدأنا نشكّ بأن الفضاء
الذي نمخرُ عبابَه الآن يختلفُ عن ذاك الذي
كنا نتخيّله كلما ذُكِرت كلمةُ "فضاء"
واقترنت بتخيلاتنا عنه هناك على الأرض .
إننا بدأنا نشكّ الآن بأنّ انحرافنا عن المسار
هو أعمق بكثير مما كنّا نظنّه في البداية ،
وبأنّ المعرفةَ مجرّد سذاجة زرقاء ،
والتي كانت تفترض ، وفقَ ما تميله البصيرةُ على الغاية ،
بأنّ للأحجية الكونية نسقاً ما .
إننا نشكّ الآن بأنّ ما نسمّيه الفضاء
وما يحيطُ بجسم إنيارا جلياً كالزّجاج

ليس سوى روح ، وهي أزلية وغير محسوسة ،
وإننا ضعنا في بحارٍ روحية .

سفينتنا الفضائية ، إنيارا ، تسبحُ
في مجالٍ لا يمتلكُ وعاءَ دماغ ،
بل إنه لا يحتاجُ إلى مكوّنات الدّماغ .
إنها تبحرُ عبر شيءٍ يوجدُ فحسب ،
ولا يحتاجُ إلى اقتفاء مسار الفكر .
عبر الله والموت والأحجية نبحرُ
على متن إنيارا من دون غايةٍ أو أثر .
آه لو أننا نستطيع العودة إلى قاعدتنا
الآن بعدما أدركنا حقيقةَ سفينتنا الفضائية :
إنّها فقاعةٌ صغيرةٌ في زجاجِ الألوهية .

والآن سأسردُ عليكم ما سمعتُهُ عن الزّجاج
وبعد ذلك ستفهمون . في أيّ زجاج
يظلّ بمنأى عن اللّمس لوقت طويلٍ ،
تتحرّكُ داخلَه بالتدريج فقاعةٌ
وتنتقلُ ببطء إلى نقطةٍ أخرى
عبر الشّكل المصقول ، وخلال آلاف من السنين
تكملُ الفقاعةُ رحلتَها في الزّجاج .

وبحالٍ مشابهة ، في فضاءٍ لا متناه
ثمةَ خليجٌ ، يبلغ عمقُه آلافَ السنين الضوئية ،
يرمي قوسَه حول الفقاعةِ إنيارا أثناء رحلتها .
وبالرغم من أنّ الوتيرةَ التي تبحرُ بها عظيمةٌ
وتفوق سرعةً أسرعَ الكواكب ،
إلاّ أنّ سرعتَها وفق مقياسِ الفضاء
تماثلُ بالضبط السرعةَ التي تنجزُها الفقاعةُ
داخل هذا الإناء الزجاجي .

* * *

مأخوذاً برعب ذاك اليقين ، أفرّ هارباً
من القاعة الرئيسية باتجاه الضوء المتورّد
الذي يملأ قاعةَ الرقص ، وهناك أجدُ (ديزي) ،
أطلبُ اللجوءَ إلى رحم شَعرها ،
وبين ذراعيها المنقذتين أتوسّلُ موعداً
حيث يقينيةُ الموتِ الباردةُ لا وجودَ لها .
وحيث الحياةُ تبقى في غرفةِ روحِ الفضاء ،
تحيا الوديانُ من "دوريس" في رحَم (ديزي) ،
وفي عناقنا ، حيث لا بردَ أو خطرَ يتعقّبنا ،
ننسى دروبَ الفضاءِ التي تحيطُ بنا .

١٤

جماعةٌ انبثقت تطلق على نفسها بالمرِحين .
هؤلاء يجتمعون ليفرَحَوا ويُفرِحُوا .
الأغلبية من النساء ، في حين أنّ المشايخ
من الرّجال ، ويُسمّون بالسّمكَريين ،
وهذه كلمة تنحدر من عصرِ ما قبل سفينتنا .
والكلمة تردُ في "الأرشيف الأزرق"
وتتعلّقُ بالإطعام على الطّريقةِ القديمةِ ،
كما أنها تحيلُ إلى ألسنةِ اللهب .
لا أعرفُ أكثر من ذلك .
حين كنتُ طفلاً في المدرسةِ ،
رأيتُ بالطبعِ في أكثر من مناسبة
ناراً طبيعيةً . كانت قد أوقدت ،
كما أتذكّرُ ، من قطعةِ خشبية ،
ثمّ تمّ الدورانُ بها وهي تنفثُ الدخانَ
وبعضَ الحرارةِ أيضاً .
عندما رآها الحضورُ ، واحداً ، واحداً ،

تمّ تغطيسها في الماء .
هكذا أُخمِدَ اللهبُ النحيلُ الفاتن .
الخشبُ مادةٌ نادرةٌ . لقد وجِدَ في عصور
ما قبل السفن الفضائية ، لكنّه تدهورَ باطّراد لاحقاً ،
جرّاء الكوارث النووية .
لقد تأثّرنا جميعاً ، كما أذكرُ ،
ونحن نشاهدُ ، على شكل حلقة ،
كيف كانت قطعةُ الخشبِ تتوهّجُ بالضّوء .
غير أنّ ذلك ، يا للحسرة ،
حدَثَ منذ وقتٍ طويلٍ ، طويل جداً .

١٥

أوصدُ قاعةَ الروحِ وأمشي دورةً واحدةً
ثمّ أصغي للمهاجِرين ، ولطاقمِ السفينةِ ،
وأسمعُ ملاّحاً فضائياً عتيقاً يحَكي عن "نوبي" ،
وهي ، بدون شكٍّ ، أعظم حبٍّ في حياته :
نوبي الصغيرة الشاحبة ، المكوية بالإشعاع ،
ذات الجمال القليل ، وفق معايير الجمال المألوفة .
لمراتٍ ثلاث وُسِمَت بالنار
وكانتْ على وشك التلاشي ، لكنها سُحبت
إلى الوراء بمساعدة أشعة (تيبي) و (جاما) .
وبعد أن أمضت سنة أو أكثر رهينةَ الغرف الموحشة
لثكنات المشافي في (التوندرا اثنين)
أبرمت صفقةَ العودة من المريخ إلى الأرض ،
واستأنفت مساعدتهَا للمهاجرين
وجمعَها المعونات للناس المحتاجين في المريخ والزهرة .
جميع أهل المريخ كانوا بحاجة إلى الراحة
من صقيع التوندرا

وجميع أهل الزهرة كانوا بحاجة إلى الحماية
من مناخهم المستنقعي .
هل أرهقت نفسَها فتدهورت صحتُها؟
قسطٌ من الراحةِ مطلوب .
كنتُ أكنّ الاحترام ، لصغيرتي نوبي ،
ولايمكن أن أنسى تلك اللحظات القليلة
عندما كانت تنتشلُ أحلامَنا في التوندرا اثنين
خلال زياراتي النادرة إلى هناك .
في تلك الآونة لم أكن سوى متطوع
على متن السفينة خمسة عشرة- واسمها (ماكس) ،
وهي قارب صغير قبالة معبر الزهرة ، كنا نستخدمه
لأغراض الشّحن ونقلِ المنفيين إلى سفوح التوندرا .

كانت الحرب الثانية والثلاثون قد انتهت للتو
وخطة التحكّم الثالثة وضعت قيد التطبيق .
أنتم جميعاً تدركون كيف آلت الأمور أخيراً :
رئيسٌ جديد في القيادة ، وأوقات عصيبة في القبو
لأولئك الذين صوّتوا ب"لا" للرئيس (دِك) .
الآخرون حُجّموا تماماً ، حزموا حقائبهم ،
وهُرِع بهم إلى السجن السابع في السفينة
وحُكِموا بثلاث سنواتٍ يجمعون الطحالبَ
في التوندرا التاسعة ، وهي من أسوأ بقاع التوندرا

التي يمكن تخيلها فوق ذاك الكوكب القذر .
ذهبنا مرّةً إلى هناك .
ولكن كفى حديثاً الآن عن أمور الخارج .
كل التغييرات الداخلية التي أتت
مع عصر بطاقات الكومبيوتر كانت أكثر سوءاً .
القساةُ الذين بلا قلوب ، والحساسّون السّذج ،
تبادلوا المواقعَ مراراً وتكراراً فوق البطاقات الإلكترونية .

وبالتدريج ، كان الخيرُ في الإنسان
يتحوّلُ إلى ثقبٍ في البطاقة الإلكترونية
كعلامة للقسوة .
في هذه الغابة الكئيبة من أنظمة التحكّم
كان علينا أن نحبّ روحَ الفضاء
التي بمقدورها أن تنظّمَ سديماً من الأرقام
لطالما تمنينا أن لا نعرفه .
لأنّ كلّ واحدٍ كان يتقمّصُ
أربعةَ ادوارٍ على الأقلّ
في ألعابِ السياسية واختلاسِ السلطة .

١٦

عبر أبوابٍ تلتفّ وتصرُّ أبداً
مثل أبوابٍ دوّارة أمام سيلِ البشرِ
كانت ترتفعُ بعض الأصوات المظفّرةِ
من الهمهمة التي تجمعُ الجميع :
اليأس ، والنية الطيبة ، والعقل الرفيع .

وكان ثمة أصوات متفرقة تنشدُ أغاني القنوطِ
كتلك التي يردّدها المتصوفون
لاصطياد الكوابيس من الفضاء الخاوي
ومن رؤى روح الفضاء :

"قريباً سيأتي الوقتُ الذي من بلسمٍ وحديدٍ مسبوكٍ
حين سأكون بمنأىً عن أي خطرٍ
عندما تلتهمُ البرودةُ والنارُ أشكالَ الحياةِ حول هدوئي .
قريباً سيأتي الوقتُ الذي من بلسمٍ وحديدٍ مسبوكٍ ."

ولكن وسط انبجاس الهمهمةِ
ترى الجميعَ يتضرّعون للروح
ويولولون عالياً كأنّما على حائط مبكى
حتى تأتيهم الروحُ بإشراقات الربيعِ القصي
من عوالم مفقودة .

والروحُ بسطت لنا الشاطئَ المباركَ ،
الذي ظل يلمعُ لساعاتٍ في بهائِه الكامل .
غير أن عالم الرّحمةِ ولّى إلى غير رجعة الآن ،
وابتلعتْهُ أزليةٌ جديدة .
وسط ظلال داكنة ، وأمام سيولٍ
لا تقدرُ أية روحٍ علَى ردّها
غرق ذاك البهاءُ .

وهانحن من جديد نرتجفُ ونهذي .

١٧

النزول السّحيقُ المتوهّمُ
باتجاه تلك الأعماق التي راهنتَ عليها يوماً
جميعها ليست بذي قيمةٍ هنا
إذ ثمة لا أعماقَ هنا لتجتازها .
هنا يمكننا أن نتتبعَ نزولكَ
ونرى كم هو عميقٌ وشاهق .
إنه ليس بالمدهش أبداً على الشّاشةِ
حيث نرقبُ وجهةَ مناوراتِكَ
وأنت تقفلُ راجعاً إلى النقطة التي غطستَ منها .
الآن ، لم نعد نؤمن بنزولكَ البتّة .

وخبير الفضاء لا يجعلُ الغطسَ قاعدةً له ،
وإذا حدث وغطسَ في المسبح الشفّاف
يعودُ القهقرى على الفورِ ويتخلّى راضياً
عن بذخِ العلم في رحلات الهواء الطلق
مكتفياً برحلاتٍ أقصر فوق هذا البحر .

مهنَته أن يلقي بنظرةٍ خاطفة
على تلك السحابة الوحيدة في هذه السماء الباردة ،
تلك السحابة الطويلة الصلبة المصنوعة من خليطٍ أبيض ،
المرسومة بألوانٍ زاهية ، والواقفة هناك
ساكنةً ، متيبّسةً ، بالرغم من أنها ترتحلُ
على قدرٍ من السرعةِ لكي تسرّحَ شَعرَ
أولئك الذين لا يعرفون مقدار السّرعة التي ننجزها
فيما إنيارا تواصلُ رحلتَها باتجاه عنقود نجومِ القيثارة .

ذات مرّة ، أرسلوني إلى الخارجِ
أتفحّصُ عملَ خلايا السفينةِ ،
ومن هذا الاتجاه ، على بعد ثمانية آلاف مترٍ تقريباً
وفق قانون الأشعة ،
بدت سفينتنا إنيارا أعجوبةً عظيمةً .

من ذاك المحيط البهيّ ، رمقتُ
تحفتَنا القديمة الغالية من "دوريس"
تقطعُ كل تلك المسافة
مقتربةً من كوكبة القيثارة
فوق سمتِ الأرض ،
تحملها سفينةُ شحنٍ أثخنت جسدَها

أسنانُ الزّمن .
عاجٌ من ذاك النوع ، الأثقل على الإطلاق ،
والذي يحملُ أسماءً ولدت من رحم الاستعارة ،
راحَ يرخي بثقله القاسي على مسارِ إنيارا .

١٨

محاولاتُ الفرار عبر شطحِ العقل
والانزلاق ذهاباً وإياباً من حلمٍ إلى حلم–
طرقٌ لطالما ألفناها .
بساقٍ واحدة غرقت تحت فيضِ الشعور
وأخرى مقيدة إلى شعورٍ ماتَ وانقضى
كنّا نقفُ .
استجوبتُ نفسي ، لكنني لم أعثر على جواب .
حلمتُ لنفسي بحياة ما ، لكنني عشتُ كذبةً .
جلتُ أصقاعَ الكون ، لكنني مررتُ به مروراً–
وهاأنا هنا مجرّدُ سجينٍ على متنِ إنيارا .

١٩

سيدتُنا- القبطانُ تدخلُ غرفةَ القيادة
ودون كلام تشيرُ إليّ بتشغيلِ جهازِ المراقبة .
لكم بدت شامخةً ونائيةً .
امرأةٌ تجرحكَ مثلما تجرحُ الزهورُ ،
ولكن ليس من خلالِ أشواكِها ، كما يُشاعُ .
الزهرةُ تجرحُكَ دائماً من خلال زهرتِها ،
وبالرغم من أن الجرح قد يكون مجرّد خدشٍ بريّ ،
لكنه يظل جرحاً على كل حال ،
بسبب الجمال بعينِهِ ، الجمال المتوقّد الصافي .

"دوريس" الفاتنة ، في عامها السادس الآن على السفينة ،
راحت تتحول أكثر فأكثر إلى نجمةٍ بعيدة ،
بل إلى شمسٍ تحرقُ عيني كالجمرةِ ،
وتغمدُ سهمَها الذهبي الطويلَ
في قلبي عبر فضاءات ساطعةٍ شاهقة-
كانت تتوهّجُ أكثرَ كلّماً اقتربتُ ،
وتلسعُ أعمقَ كلّما ابتعدت .

أدير محرّكَ المراقبة وانتظر في مقعدي ،
لأرى بعد هنيهة الملامحَ تتلألأ
بذاك التناوب العجيب على وجهِ
سيدتنا الفاتنة ، وهي تخفي بهدوء
أشفَّ نغماتِ جمالِها .
غير أنّ روح السفينةِ تعملُ
جاعلةً كلّ شيءٍ واضحاً .
يومضُ خدّ الفاتنةِ الناصعُ على الفورِ
ويحمرّ ثانيةً : إنها تكتنزُ بالنداءِ السماوي
عندما تُريها الروحُ كل ما هو هناك
من غبطةٍ مستحيلةٍ في عوالم الفضاء .
تبتسمُ ثم تضحكُ ، مخطوفةً بالمتعةِ ،
كأنّما وقعت للتو في أسرِ الآلهة .
وعندما يتراءى أنها صارت مهيأةً للبركة التامّة
تغيّرُ الشبكةُ الثالثةُ معاييرَ التركيزِ في السفينةِ
لتفيضَ قاعةُ الروحِ بالأطياف المتلألئة للعالم .
هنا تديرُ الفاتنةُ وجهَها لظلّ آخر .

أطفئ جهازَ المراقبة . إنه هناك من أجل الراحةِ
وليس من أجل أن يجعلَ الكائنات البشريةَ ترتجفُ
أمام عوالمَ تشبه في ملامحها تلك التي تركوها خلفهم .
الآلامُ والأزمات التي عانينا منها جميعاً

عندما كنا نعيشُ في "دورسفيل"
لا قيمة لها بالنسبة لهذه المرأة .
بنعومة ألمسُها بيدي
وأنا أغلّقُ بابَ البرج ،
لأنّ حقيقة الروح غير قابلة للتشويه ،
وهي تظهرُ صريحُ لكلّ ما في الخلق .

تنهضُ الفاتنةُ وتشيرُ إليّ
معبّرةً عن امتنانها لإغلاقي الجهاز .
تستديرُ خلف الباب وتطلبُ مني إبلاغها
بأي طارئٍ لو أن الروحَ تستقبلُ-
لا تنطقُ بالكلمة ، لكنني أخمّنُ معناها .

دوريس الدفء ، ودوريس اللطف ،
دوريس البعيدة أضحت الآن نجمةً أنبلَ
نصبو إليها . إنها الآن نجمةُ النجوم .
آه لو أنني أعرف فقط أين تقيم
بعد مرور سنوات ستّ ، لكنّ شموس الفضاء
شاسعةُ ورحبة ، ولن أجد تلك النجمةَ ثانيةً .
يا لنجمةِ دوريس النبيلة .

٢٠

كلّ ما كنا قد حلمنا باستقبالِه-
مناظر بعيدة عن أتراح انقضت
وعن أفراح ولّت منذ أمَد بعيد-
نأخذهُ إلى غرفة الروحِ
عبر مسارات الموج القدَيم .
تتبدّل الصورةُ عبر تموّجات أكثر بعداً
لكنّها تلتفّ مثل قوس الصّدى الغامضِ
في شكل متاهة حول العالم اللامتناهي ،
لتصلَنا جميعاً كلّ نُذُرِ الكون .
عبر الفضاء تتدفقُ أبداً نُذرُ الشرّ ،
لكنْ ثمة نُذرُ خيرٍ أيضاً ،
وهي تسلكُ مساراتٍ أقلّ وضوحاً ،
لأنّ الخير لا دور له في الحياة الفاعلة ،
وضوءُه هو الضوءُ نفسُه
في هذا العامِ ، كما في كلّ عام .

٢١

بيدَ أنّ الشكّ حمضٌ يفتّت الأحلامَ
ما يفوقُ تصوّر أيّ حالم أبداً ،
وعبر نافذة الرّوح وحدها نستطيعُ
أن نرى ثانيةً جمَالَ ودفءَ أطيافنا الحالمة .
لهذا السبب كنتُ أحتفظُ بالمفيدِ فحسب :
ذاك الذي يحملُ ألوانَ الرّاحةِ ويمثّلُ الحياةَ .
وعلى متن سفينتنا ، كلّما خيّم القلقُ ،
وفعل اليأسُ فعلَه بأعصابِنا ،
كنتُ أتوجّهُ ، طلباً للنجدة ،
إلى أرشيفِ الرّوح
وما تخزّنُهُ من أحلام .

٢٢

الطبيبُ الذي يعاينُ عيوننا
ويرى فيها أن شهوة الحياة تخبو
يجفلُ من مرأى الدموع الفيّاضة
حيث لا أثر لأيّ تمساح .
هذه الدموع الفياضة فيٌ القاعات
التي تهيمنُ عليها روحُ الفضاء
هي مديحٌ عالٍ لسهول دوريس الخضراء .

وبالرغم من صدقِها ، بدت هذه الدموعُ باردةً
مثل مياهٍ خلوّ من الحسّ ، تفورُ من الأعماق .
كان انهمارُها مصاغاً بكلّ شفافيةٍ
مثل قطرات مطرٍ لا تصلُ الترابَ من شدّةِ صفائِها :
إنها دموعنا الرقراقة في إنيارا العقل .

٢٣

الإسطرلاب الرئيسي أتى لإسعافِنا ،
هو الخبيرُ بالشّرر الذي تطلقه النجومُ البعيدةُ .
ولكن ، من دون إنذار ، خرّت نجمةُ العقل
ميتةً داخل عقلِ الإسطرلاب الرئيسي .
مرغماً على الموت تحت تأثير نُذُرٍ لا مردّ لها ،
تهشّمَ عقلُه ومات ، مطعونَ الرّوحِ .

٢٤

يسري العقمُ طائشاً في كلّ اتجاه ،
شاتماً ، ولاعناً الزمانَ والمكانَ .
كثيرون ظنّوا أننا بدأنا نواجهُ
عقاباً عادلاً فيما نحن نقتربُ
من كوكبة القيثارة .
ولأننا أسرى قوانين الفضاء الصارمة
حبسنا أنفسَنا داخل ذاك التابوت الحجري ،
نجهّز أنفسَنا لدفنٍ حيّ في الأعالي
حتى يخلعَ خيلاؤها طيفَهُ جانباً .

بعد آلاف مؤلفة من السنين
شمسٌ بعيدة ستلقي القبضَ
على فراشة تطير باتجاهها
وتطوّقها كما لو أنها مصباح
عندما يحينُ وقت الحصاد في "دوريسولد" .

عندئذٍ سوف نُنهي رحلتَنا عبر هذه الأصقاع ،
ويخلدُ حشدُ إنيارا إلى نومٍ عميق
ويتبدّل كل شيء سريعاً فيٍّ قبضةِ روح الفضاء .

٢٥

نبحرُ داخل تابوتنا الحجري بصمت ،
لا عنفَ نرتكبه بحقّ الكوكب
ولا سكينةَ موتى نُشيعها على جنسِنا البشري .
هنا بمقدورنا أن نسأل بحرية ، ونجيب بصدق
فيما إنيارا ، التي ضلّت طريقها
في دروبِ الفضاء المظلمة ،
تتركُ الزمنَ الكالحَ خلفَها .

٢٦

الرجلُ الأبكمُ الأصمّ كحجرٍ بدأ يصفُ
أسوأ صوتٍ سمعه في حياته . صوتٌ يفوقُ السمعَ .
تماماً عندما كانت طبلةُ أذنه تتمزّقُ
أتى صوتٌ يشبهُ أنينَ شجرٍ يعولُ ،
وكان الصوتَ الأخيرَ-
عندما انفجرَ المحرّكُ الضوئي ودمّر (دوريسبرغ) .
كان صوتاً يفوقُ السمعَ ، ختمَ الرجلُ الأصمّ .
لم تستطع أذني مجاراته ،
عندما انداحت روحي وتبعثرت ،
وانبجسَ الجسدُ وتمزّق إرباً ،
وصُعقت عشرة أميال مربعة من الأرض
وانقلبت رأساً على عقب ،
ما إن انفجرَ المحركُ الضوئي
وأطاحَ بالمدينة التي كانت تُدعى يوماً (دوريسبرغ) .

هكذا تحدّث الرجلُ الأصمّ الذي مات .
ولكن ، بما أن الحجرَ ينطقُ ، كما تقول الحكايةُ ،
كان الرجل الميت يتكلّمُ للحجر .
من الحجرِ صرخَ بأعلى صوته : هل من أحدٍ يسمعُني؟
ومن الحجرِ صرخَ بأعلى صوتِه : ألا تسمعونني؟
مدينتي الأمّ كانت يوماً (دوريسبرغ) .

بعدئذ بدأ الرجلُ الأعمى يتحدّثُ
عن الضوءِ الباهر ، المرعبِ ،
الذي أطاحَ ببصره .
لم يكن قادراً على وصفِه .
ذكر تفصيلاً واحداً فقط :
كان يرى من خلال العنقِ .
جمجمتُه أضحت بأسرها عيناً
أعماها السطوعُ الذي يفوقُ أيّ منبعٍ ضوئي ،
سطوعٌ ارتفعَ وانتشرَ بوهجٍ أعمى
فوق نومِ الموت . ولكن لا نومَ أتى .

هكذا ، كان حالُه يشبهُ حالَ الرّجل الأصم .
ولكن ، بما أن الحجر ينطقُ ، كما تقول الحكايةُ ،
فإنه راح يصرخُ من قلب الحجرِ ، كما فعل الرجل الأصم .
وراحا يصرخان معاً ، الواحد تلو الآخر ، من قلبِ الحجر .
ومن قلب الحجر راحا يصرخان ، تماماً كما فعلت "كاساندرا" .

أهرعُ إلى برجِ المراقبة ، كأنما ، بحزني ،
كان بمقدوري أن أحولَ
دون ذاك الفعل الفظيع .
لكن الروح في البرج كانت تكشفُ كلَّ شيء
واضحاً وجلياً ، وآخرَ مسار الموت والنار ،
هنا ، أستديرُ إلى الآخرين ، وأصرخُ ملء ألمي
وأنا أشاهدُ موتَ دوريس :

ثمة حماية تقينا من كل مكروه تقريباً ،
من النار ، ومن أخطار العاصفة والصقيع ،
ولتضيفوا ما يخطر على بالكم من ضربات أخرى .
لكن لا توجد حماية ضد الجنس البشري .

عندما تحركنا الحاجةُ ، لا أحدَ يرى بوضوح .
كلاَّ ، فقط عندما تصبح المهمةُ تعذيبَ القلبِ
ونبش جميع كنوزه من الأحلام
من أجل أن ننفقَ السنوات الباردة والشريرة .

وما لبث برقٌ سماوي أن أعمى روح الفضاء
وصُعقتُ بدوري جراء حوادث بدأت
تنهمرُ فوق الأرض البائسة ؛ هنا بالضبط
بدأت البروق تنسكب في قلبي

كأنما عبر جرح مفتوح .
وأنا ، كاهن الرّوح الوفي في أقاصي الزرقة ،
رحتُ أتلقى الأخبار السيئة ، والدم يتجمّد في عروقي ،
عن دوريس التي ماتت بعيداً هناك في دوريسبرغ .

٢٧

العزاءُ الوحيدُ الذي تبقّى لي كانت "ديزي" .
إنها المرأة الوحيدة المتبقّية التي تتقنُ
لهجةَ دوريسبرغ الجميلة ، فيما كنتُ ، أنا ، آخر رجلٍ
يفهمُ حديث ديزي ، ولغتها الفاتنة ،
السّاطعة مثل نداء الشِرك ، وهي تغمغمُ بلسانها الحلو .

تعال واطلق سراحي ، تُتمتمُ ديزي .
تعال وأبحر معي بعيداً وعالياً :
حبيبي هائمٌ ، وأنا زورقٌ ولهب ،
أستحمّ بالدموع ، وأرتدي الوردَ .

وأنا ، الذي يعرفُ أن دوريسبرغ قد
مُحيت عن بكرة أبيها بعد الانفجار الضوئي ،
أتركُ ديزي على حالها ، تماماً كما هي .

أية فائدة تُرجى في كسرِ الوهم
الذي ظلت ديزي وحدها

تتمسّك به ، دون وعي منها ،
حتى إنها ، وهي تنسابُ حارةً ،
لا همّ يكدّر بالهَا ، بعد انتهاء الرقصة ،
لم تكن تعرف أنها نفسها قد ترمّلت
بعد اندثار مدينة دوريسبرغ .

تحثّني على أن أستمرّ في الغناء ، وأختارُ
مقطوعةً عن الحديد المقذوف كنت تعلّمتُها
عن بلدة "غوند" التي انصهرت أثناء الحرب .

لكنّ ديزي تغمغمُ بحبور ، شبه سكرانة ،
وكأنّ وجودها كلّه قد خُلِقَ
لكي تغنّي مديحَ الأغنية في تموّجِ الرقصة .

من سأكون؟ وحشاً لو أنني أفسدُ
الوهمَ المهيمن الذي نبشتهُ
من أعماق صدرِها ، ومن قلبِها
الذي يصبو للنشوةِ .

تغمغمُ ، كمن مسّتها حمّى ، ثمّ تخلدُ للنوم .
حولنا ، حيث كنا نستلقي ، غابت حواسّ إنيارا ،
ولكن ليس إلى درجة النوم . العقلُ الصاحي

متنبّهٌ للأرضِ التي عليه أن يعملَ من دونها .
وحده قلب ديزي يخفقُ واثقاً ، مطمئناً ،
على متنِ إنيارا ، موثوقاً إلى كابوسِها السّاطع .

٢٨

ومع انصهار دوريسبرغ ، مرضت روحُ الفضاءِ لأيامٍ
تحت وطأة الإشعاع القادم من الانفجار ،
وراحت شبكتُها الثالثةُ تقاومُ العارَ المركّب البعيد
كمن يحاربُ غيمةً . في اليوم الثالث
راحت تتوسّلُ الخلاصَ من نبوءتها .
في اليوم الرابع ، راحت تسدي لي النصيحةَ
عن عمل أجهزتِها الفاحصة في غرفة التراتيل .
ولم يرجع هدوءها إلا في اليوم الخامسِ
عندما تلقّت بثّاً من عالم أفضل ،
وعادت خلاياها ، ساطعةً ، تعملُ من جديد-
وبدأت تسترجعُ قواها كاملةً .
في اليوم السابع ، كان ثمة طنينٌ
لم أسمع له مثيلاً من قبل ،
راح يتسرّبُ من أنسجتِها .
المؤشرات الحيادية لشبكة الرقم ثلاثة
انطفأت ، معلنةً أنها أصيبت بالعمى .

فجأةً استدعتني الربّةُ إلى حجرتها الداخلية ،
وكان عليّ أن أمثل ، مرتعشاً ، أمام مهابتها الكبيرة .

وفيما كنتُ أقفُ هناك ، متأثّراً ، يلفّني صقيعُ الخوف ،
والقلقُ العارمُ على حالتِها ، بدأت هي ، على حين غرة ،
تتحدّث إليّ ، عبر مصفّي الصّوت ، بلكنةِ نظرية الشّد العالي
فائقة التطور ، والتي كنا عادةً ما نستخدمها
خلال أيام العمل .

أمرتني بأن أُخبرَ القيادةَ العليا بأنها ،
ومنذ بعضِ الوقت ، كانت مجلوةَ الضّمير
كالحجارة تماماً . لقد سمعَت الحجارةَ تصرخُ
صرخاتِها الحجريةَ في دورسفل البعيدة .
وشهدت النحيبَ الحارّ الأبيض للغرانيت
حين كان الحجرُ أو الفولاذ يتبخّرُ في الهواء .
ولطالما نغّصَ هدوءَها وجعُ تلك الحجارة .

داخل دائرةِ عملِ خلاياها ، مظلّلةً بالقسوة
التي يبديها الإنسانُ في زمن ارتكابِ الخطيئةِ ،
وصلت ، أخيراً ، إلى مرحلتِها ، المتوقّعة منذ أمد ،
(والتي تصلها الربات جميعاً) من الاحتضار الأخير .
المؤشرات الحيادية لشبكة الرقم ثلاثة

ترى آلاف الأشياء التي لا يمكن لعينٍ أن تراها .
الآن ، وباسم جميعِ الأشياء ، كانت تَطلبُ السلامَ .
الآن ، ستكونُ حلاً من عروضِها .

٢٩

كان ذلك بعد فوات الأوان : لم أستطع أن أمنع
حشود البشر الذين راحوا يتجمهرون أمام قاعة الربة .
صرختُ بهم ، وأمرتُهم بالعودة من حيث أتوا ،
ولكن ، لم يكن ليصغي إليّ أحدٌ ، وبالرغم من أنهم
كانوا يتوقون ، هلعِين ، للفرار من خدر الربة ،
لكنهم تقدّموا ، مهووسين برؤية الأشياء التي ستأتي .

ضوءٌ أزرق كالسهم انطلقَ من شاشات الربّة ،
وعبر ردهات القاعات تناهى صوتُ هديرٍ
مثل الرّعد القاصف ، القادم من دوريسولدَ .
رجفةٌ من الرّعب سرت بين ظهرانينا
وتفرّق شملُ مهاجرين كثر
عندما انسحقت الربّةُ على متن إنيارا
وتلاشت بعيداً في الفضاء .

الكلمةُ الأخيرة التي بثّتها كانت بمثابة رسالة
من شخصٍ يسمّي نفسه "المفجّر" .

جعلت المفجّرَ نفسَه يقف شاهداً على ما حدث
ويخبرُ ، بلسان متلعثم ومتفجّرٍ ، عن الحالة الرهيبة ،
وعن انفجار المرء تلقائياً ، وكيفَ أن الوقت
يسرعُ إلى حتفه ، لاهثاً للقبض على صيرورته .

وعلى وقع نداء الحياةِ يزيدُ الوقتُ في سرعتهِ ،
يطيلُ أمدَ اللحظةِ نفسِها
عندما يوشك أحدُنا على التلاشي .
ياله من رعبٍ ينكفئ إلى الداخل
وياله من رعبٍ يميدُ إلى الخارج .
ويالها من حالةٍ رهيبةٍ دائماً ،
عندما يكون المرء على وشك الانفجار .

٣٠

الآن ، حلّ وقتٌ من الامتعاض المرير ،
ولطالما جلستُ هناك ، صامتاً ، أتأملُ
ما حدث في قاعة الربة ، حيث أرسل الشرّ
عاصفةً من الأشعة السوداء من أقصى التخوم .

مذهولاً ، رحتُ أحاولُ تنشيطَ
أجهزة الطمأنينة وفنونها
في مقصورة روح الفضاء الخاوية ،
وتفعيلَ العضلات المشدودة
لإيقاظ مركز العجائب في قلبها الرباني .

كان الصوت داخل جهاز التصفية ساكناً
والذي كان بمقدور جهاز الاستشعار
أن ينقله من نداءات قليلة
كانت تأتي من ظلّ (بيوتاني) ،
واهية ، ضعيفة ،
لا يستطيع التقاطها ، لا بشرٌ ولا إلهٌ .

وأوغل الحشد المتجمهر في إطباق الحصار علي
ومطاردتي ، وكيلِ الشتائم لي ،
فيما كنت أرزح تحت وطأة كوارث
تحمل قلبي بعيداً .

أما "شيفون" ، معلم حرفتنا الصارم ،
فكان يدخل كل يوم لكي يوبّخني ،
وبالرغم من أن غضبه كان جلياً ،
كان تهديده يشي بأن المحكمة وحدها
ستقتصّ مني .

ولطالما سعى ، عبر هذره الغامض ،
تضخيم إلى منزلته في مركبنا الشراعي
وهو يهمسُ بكلمات شيطانية في أرواحنا
لكي يجعلنا نؤمن بأنّ مآلنا الوحيد هو جهنّم .

ويوماً وراء يوم ، وباستخدام الطرائق ذاتها ،
أبلى بلاءً حسناً ،
وحيث أنه ينوء تحت ثقل اللانهاية ،
يفاجئك دائماً كمن نذرَ نفسَه لإجبار أهله
على التدهور والانقراض .

٣١

غير أن "شيفون" الآن أمر بإنزال العقوبات
واختبأتُ ، مع كثيرين غيري ،
في مخابئ بعيدة فوق ظهر السفينة
حتى فرغت براميل الغضب .

هناك جلس تقنيون متخصصون يُعنون
بكل شاردة وواردة في مستودع التحكّم الرابع ،
وأولئك الذين لا يكفّون عن تلويث العقل الصافي
كفّنوا أنفسهم بالجد .

وخلال مماحكات كثيرة ، كان كثيرون يسعون للبرهنة
بأن مأساة المركبة سببها أعمالنا المشينة ،
لأنّ ذواتنا المتضخّمة عكّرت صفو شاشتِها
بأفكار غريبة جعلت بصرها يتراجع
ووسّخت هناءة الفيضان بأحلام خاصّة
شوّشت تألّقَها ، ومناهلها الكونية .

وبعد إصرارنا على براءتنا ، أردنا
أن نحاججَ ، من دون أن نملك مستنداً علمياً ،
وباللغة التي تعلّمها الجميع ،
ونطرح أبسط أنواع الأحاسيس .

ولكن هذه اللغة نفسها ، المعنية بتوضيح كل شيء ،
صارت أكثر وعورةً بالنسبة إلينا ، بل تشبه غمغمة عميان
يتجنبون الكلمات ، ويخوضون خبط عشواء ،
وسط وضوح العقل الكوني .

حاولنا ، بعدئذ ، أن نرسمهم كمتوحشين
وكشيوخ قبائل بربريين ، مثل أولئك الذين
عاشوا في عصر عظيم ، وكان ذلك بمثابة
أدنى محاولة للوصول إلى روح العصر .

رسمنا علامات تمثل كواكب وأشجاراً ،
ورسمنا فيضاناً براوفد مختلفة ،
وشيّدنا نصوصاً بالاعتماد على هذه الاستراتيجيات ،
استطاع الناس ، بمساعدة الصور ، أن يفهموا مغزاها .

كانت تلك ، بالنسبة إلينا ، تصاريف غريبة أيضاً ،
بلغةٍ بعيدة عن لغة أرض الفضاء ،

ولم يكن بمقدورنا أن نتعرّف على الجهات الأربع ،
حيث انتظر الجميعُ منا يدَ المساعدة .

تشعّبت الآراءُ وتعدّدت خلال جلسة المرافعة
في هذه المحكمة التي كان يمكن لها
أن تخلّصنا من مصير الفضاء ،
وظلّ الجسرُ الواصلُ بيننا خاوياً تماماً .

٣٢

وعبر قدرة صوتية منظّمة
للروح الناظمة لإنيارا
بلغاتها ذات الأطوار المختلفة
كان بمقدوري خلال عامين
أن أبرهن على كفاءتي
في التنبؤ والرؤيا عبر الأشياء
تماماً كمن يرى عبر الزجاج ،
وبعد سنوات ثلاث من اليوم الذي رأيتُ فيه
روحَ الفضاء تنفجرُ شظايا في قمرة إنيارا
رحتُ أسبر أسرارَ القوانين
وما يجب أن يعلو أو يهوي .

وحين عثرتُ على السرّ ، كدتُ أفقدُ عقلي .
غبطةٌ عميقةٌ ، ثملةٌ ، غير حقيقية ، ومفزعةٌ
حوّلت روحي ، على الفور ، إلى فضاءٍ وعينٍ
داخل سَكَنِ اللانهاية .

ورأيتُ يداً تنتشلني من السّجن السفلي
حيث المرأة- القبطان كانت تجلس أيضاً ،
عدتُ أدراجي إلى ردهات القمرة المقدسة .
وانطلقت الشائعات . سمعتُ الصرخات المبتهجة .
وراح الجميع يتحدث عن الكنز الذي رأى الضوءَ أخيراً ،
وعادت روحُ السفينة ، من جديد ،
لتسكن الليلَ المطرّز بالنجوم .

٣٣

اعترتني على الفور فرحةُ العودة إلى القمرة :
فأمام كلّ حلّ ، ثمة لغز يكمنُ لك .
رأيتُ المفتاحَ الآن ، كأنما عبر حائط
من الزجاج الفضائي الصافي ، وخلفه
مساحات كريستالية عميقة .
ومن دون الروح الحارسة ، التي لطالما سندتني ،
كنت ممزقَ الرّوح ، أنوء تحت ثقل الهمّ ،
ودم العقل يجفّ من هول الصدمة .
ومن دون روح الفضاء ، رأيتُ الوجودَ- المرآةَ
يرقد منهكاً ، محتضراً عند قاعدتهِا .

مصطدماً بأطلالها ، كمن يصطدم بشظايا متناثرة ،
رحتُ أتملّى صدرَها وأرى موقداً يبردُ و يتلاشى .

٣٤

لم يكن لي اسم . أنا من صُلب روحِ الفضاء ،
ولهذا أُطلِقَ عليّ تابعُ الروح .
والقَسَم الذي حلفت به مشتقٌ من اسمِ السّفينة .
أما الاسم الذي كنتُ أحملهُ فقد حُذِفَ في "الجولات الأخيرة"
وكان يجب نسيانه ، مرةً واحدة وإلى الأبد .

أما ما يتعلّق بقبطانتنا ، "إساجل" ، حقيقة الأمر
أنّ موقعها فرضَ اسمَها ، وكان بمثابة كلمة الشِفرة .

الاسم السرّي الذي تحملُهُ ، وهمست به
قريباً من أذني ، كادَ يقطعُ أنفاسي .

في عينيها بريقٌ فاتنٌ للأشياء العسيرةِ على البوح ،
التي لا يمكن اكتناهُ مغزاها :
إنه الوهج الذي يلفّ عادةً الأحجية
ويفرضُهُ جمالُ السرّ نفسه .

راحت ترسمُ خطوطاً منحنيةً ،
أظافرُها تشعّ مثل فوانيس خافتة عبر غسق الغرفة .
تقول لي : جِد قراءةً لهذا القوس
حيث ظلّ حزني يخلعُ ظلامَه .

ثم تنهضُ ، تاركةً مكانَها شاغراً ،
وفوقي تنسكبُ أفكارها المتلألئة .
تلتقي عيونُنا وتنغلقُ ، لنقفَ روحاً أمام روحٍ ،
دون كلام . تلك "إساجل"
التي أحببتُها من صميم الفؤاد .

٣٥

غير أنّ مأزق الفضاء جعلتنا نمارسُ شعائر
وصلواتٍ على المذبح
نادراً ما خطرت على بالنا من قبل ،
خاصةً أنّ الأزمنة التي سبقت رحلتَنا الفضائية
باتت نصفَ منسية الآن .
بدأت تظهر الأشكال الدينية الأربعة على متن إنيارا
المترافقة مع الكِهانة ، وأجراس المعابد وإشارات الصليب ،
مع عبادة الجسد والفتيات المنشدات ،
والمتشيّعين ، الضاحكين أبداً ،
تتزاحمُ فيما بينها في الفضاء
للفوز بصحارى الأبدية الرهيبة .

وبصفتي تابعاً للروح ، أقوم على خدمتها ،
ومسؤول عن كلّ الأوهام المنبثقة ،
كان عليّ أن أفردَ فسحةً في مخبأ الربّة ،

وأمزجَ المناظرَ والأصوات جميعاً
مع الرّقصات الشهوانية التي ترنّ
مشوبةً بدورات الشبق .

٣٦

ابتكرت النسوةُ لأنفسهنّ منظراً أخّاذاً
لم يكلّف المشتركات جهداً كبيراً .
هناك نسمعُ هياج (يال) ، التي استنفرت
مواهبَها الغرامية حتى الذروة ،
وهناك تقف (ليبدلا) ، المنحدرة من نسلِ "فينوس"
رمز الانبعاث والخضرة الدائمة .
وفي البعيد تقف "تشبيبا" المتلفّعة بالشهوة
على فخذها وشمٌ ،
وبالقرب منها "جينا" ، من نسل ملكة السماء ،
تراقب الجمعَ السّهرانَ بعينٍ متيّقظة .

ولطالما راودتني خطةٌ وودتُ تنفيذَها :
أضعُ آلاف المرايا في المكان عينه
لتعطينا كل شيءٍ يمكن للمرايا أن تعكسهُ
على سطوحها- الفضاء مكبراً وممتداً آلاف الأميال
في الفضاء المتخيّل .

وحين وضعت المرايا في عشرين ردهة ،
ومن بابٍ إلى باب ، كانت النتيجةُ مذهلة ،
حتى إنني على مدى أربع سنوات ،
بالقرب من هذه المرايا ،
استطعتُ أن أستدرجَ خلجات الروح .

و من أجل أن ندرّب عيوننا من أعلى مسارِنا
على فرح العالم المتعدّد المرايا
حرفتُ الكثيرَ من العقول إلى السُكر
الذي وفرّته مراياي في بيت المرايا
حتى إنني أنا نفسي استهلكتُ وقتاً
للهرب مع "دودي ديزي" خارج دوريسبرغ .
ولكن أيضاً مع "تشبيبا" و مع "يال"
كانت صورتي المطبوعة في المرآة
تتأرجحُ في قاعة الربة .

أتوا زرافات ، زرافاتٍ ، ورأيتهم
يستيقظون على الشعائر والصلوات ،
رحتُ أنظرُ بإعجاب ، ترتجف أوصالهم بين المرايا ،
التي استحوذت عليهم بالكامل .
ومن كل الجهات التي انعقدت فيها حلقاتُ الرقص
كانوا يرون أنفسهم ضيوف السّماء ،

صورهم معكوسة في الوهج المكثف ثماني مرات ؛
ثماني مرات تتضاعفُ "تشبيبا" وكذلك حالُ "يال" و"جينا"
في القاعة المكتظة بالمرايا .

وثمة "ليبدلا" ، بيدها المتمرّسة ،
تستنهضُ رجلاً من "دورسلاند" .
وهناك "تشبيبا" في رقصة محمومة
تتزوبعُ باتجاه خواء المرآة
في حين تتمايل ثماني فتيات اسمهنّ "تشبيبا"
جيئةً وذهاباً ، فيما نهودٌ وأقدام ترتجّ
ظاهرةً للعيان .

كلٌ يقدّمُ أفضلَ ما يستطيع من أجل العرض
تتناغم الأقدامُ في المرايا ، والرقصات في المرايا ،
وداخلِ الردهات تُظهرُ العروضُ نيازكَ
تضيءُ الوديانَ الصغيرةَ والكبيرةَ في المرايا .

٣٧

الرغبةُ والتقوى تجتمعان في بقعةٍ واحدة ،
تتدحرج العربةُ المربوطةُ بأسلاكٍ والتي
يجرّها رجالٌ ونساءٌ من أبناء الطائفة .
الهراوةُ الباردةُ ترفعها "إساجل" ،
و"ليبدل" تمسكُ بفانوس الرُقية
متبوعةً بثمانٍ من شبيهاتها ،
تختارُ مكاناً لهًا ، مستلقيةً لإدخال البهجة .
وبعدما أدخلت نارُ الحوض الدفءَ إلى أوصالهنّ
يستلقي الجميعُ ، مستسلمين للكرى ،
تدخل "إساجل" بهراوةٍ منكّسة
وطلباً للفأل الحسن ، تلمسُ بفانوسِها ، ولمرات ثلاث ،
المذخَرَ الثمين ، القبرَ المباركَ لروحِ الفضاء .
تُسمَعُ تنهيدةٌ مثل نهرٍ من القصبِ حين تأتي "يال"
بنهدين وديعين ، آمنين ، وتتوقّفُ
أمام المدفنِ المقدّسِ وتتضرّعُ
بهمساتٍ لطيفة أمام نعشِ الإله .

وأيّ سلام عميق ينسابُ حول محياها
حين تردّدُ ترنيمةَ "يوم الأيام" المقدّسة ،
وتقفُ كلٌّ من "إساجل" و"ليبيدل" و"هيبا" مع "تشبيبا"
ويشكّلن جوقةً على طرفِ القبر .

٣٨

خلف قمرة الربّة ، تجلسُ الجميلةُ "ليبدل"
ذات مساء شتائي ، تسوّي جمالها ،
لابسةً جرساً جانبياً وقلنسوةَ بوذا :
دبوسُ زينتِها المعكوس في المرآةِ
يرنّ أمام كأسِ سرّتها .

ثمة قلبٌ يشعّ بين الفراغِ السّاحر لنهديها ،
مشيعاً الدفء في زمرّدةِ المرآة الثمينة ؛
حقولٌ من الحبر حول طبقاتها ،
حين يهطلُ الضوءُ فوقها .

ضاربين طوقاً حولها ،
خصومها السريون شحذوا ترنيمتَهم الشرسة
متأهبين لتدمير سمعتها
وتشويهها حتى يذهب سحرُها كلّه ويتلاشى .

لكنها ظلت بهية المظهر ، تقودُ الوثبات
داخل عرين الطائفة ، ولكن أتتها أيامٌ
كان أتباعها يظهرون نثار تجاعيدها
أكثر مما يوقدون نار إخلاصها .

ها قد بدأت للتوّ تختفي عن الأنظار
غير بعيدة عن الأمكنة المقدسة ،
وحول الثوب المحيط بالخصر
تشيحُ العينُ ببصرها عن العيوب الجسدية .

العديد من الخبراء ، ممن كانوا يوماً من مريديها ،
ينُضِجون شكّهم في الخفاء ،
لا يتجمهرون ، كما تعوّدوا ، طلباً للراحة
بين أحضانها عندما كانت تؤمّ المصلين .

"الييدل" المرتعشةُ ترتّب شَعرها .
صارت تشعر أن دبّوس السرّةِ كالجرح
لكنها تأمل أن يظل نهداها المكتنزان
برفقة وركين جذّابين ، دليلها للبقاء عاماً آخر
على سدّة المذبح ، بالرغم من أن الخريف
القادم ينبئُ للتوّ بنذرٍ مشؤومة .

تحت وشاح الشّمس المحمرّة ووهجها
تقف بالقرب منها "يال" الحلوةُ-
هي لا تزال صغيرةً ، لكن وقتها قادمٌ لا ريب ،
حين تصير هي الحسناء الفاتنةُ ،
وتخلُفُ "ليبدل" ، ذات ليلةٍ من النجومِ المتهاوية .

٣٩

سبقٌ لم يكن يتنبأ به أحدٌ
أنجزته "إساجل" ، قبطانتنا .
ذات صباح جلست صامتة في غرفة "غوبتا"
تستحوذ عليها أفكارٌ عن أقواس "جِندر" .

نادتني للمثول أمام لوحِ "جِندر" ،
وراحت ، بسرعة البرقَ ، تنجزُ سبقاً علمياً
يأخذُ على يديها صيغتَه النهائية .
صرخت من الغبطة ، تضمّ إلى صدرها
الإلهامَ المتدفّق بقوة ، والذي تكوّن في أعماقها ،
نتيجة عشقٍ عميقٍ لقانون "أعدادُ ألِف" .

مراقباً الوليدَ الجديدَ ، رأيتُ بوضوح
أنه كان معافىً ويتمتّعُ بالعافية ذاتها
التي لطالما ميّزت "إساجل" ،
الخادمة المخلصة في مزرعة الأرقام .

ذاك السبق الذي تحقّق في وديان "دوريس" ،
لو أنّ وديان "دوريس" فقط ظلّت ممرّاً آمناً
لعبور علماء الأرقام ، لكان بمقدوره وبشكل ملحوظ ،
توسيعُ وتغييرُ علم "الغوبتا" أو السِحر على نحوٍ شامل .

ولكن هنا ، حيث قادنا قدرنا
إلى مسارٍ فرضته قوانين الدوران ،
لم يكن اكتشافها مثمراً بأي حال ، بل مجرّد فرضيةٍ
صاغتها "إساجل" بمهارة عالية ،
وكان مقدراً لها أن تصحبنا بعيداً
باتجاه "كوكبة القيثارة" ومن ثمّ تتلاشى وتختفي .

وفيما كنا ، أنا وهي ، نجلس هناك ،
نتبادل أطراف الحديث حول الاحتمالات
التي انفتحت أمامنا
لو أننا فقط لم نكن نجلس في الفضاء
أسرى للخواء الذي سقطنا فيه ،
انتابنا الحزنُ ، لكننا احتفظنا بنشوة
اكتشاف الأفكار ، ذاك النوع من المتعة
الذي بإمكاننا أن نتشارك به بهدوء
على مدى الأيام المتبقية من أعمارنا .

وبين الحين والآخر ، كانت "إساجل" تنفجرُ بالبكاء
وهي تتأمل الفضاء الواسعَ الشاسع
حيث لكل منّا مساحة حرّة للسقوط النهائي-
كما يحدثُ لها الآن ،
بعدما أزاحت ، بمهارة ، الحجاب عن الأحجية ،
وهاهي تسقطُ معها وتتهاوى .

٤٠-حكاية يد الفضاء

الانتقال إلى التوندرا رقم ثلاثة
استغرق تسع سنين .
عملية إخلاء حضارةٍ (غوند) استغرقت عشر سنين .
أنا نفسي كنت على متن السفينة الثامنة .
تناوبنا المهمّةَ مع سفنٍ فضائية أخرى ،
مثل "بينارز" و "كانتونً" و"غوند" ، وغيرها .
في غضون خمس سنوات
نقلنا ما يربو على ثلاثة ملايين إنسان خائف
إلى كوكبهم الحالي .
والذكريات لا تزال توجعُ كجراح حنونة
وخاصة تلك الرؤى المتعلقة بمنطقةً الإقلاع ،
حيث المشهد الحزين نفسه يتكرّر
وتمتزج فيه الدموعُ والأسنانُ النادمةُ
مع أناشيد الفرح النضرة لملاّحي الفضاء .
وحين أتى هؤلاء من "غوندا" ، كلٌ يصطحبُ
جواز سفره وبطاقة هويته ، كانوا قد اختيروا

للنجاة من عار الأرض وآثامها ،
وفي وقت المغادرة ، تجمعوا ،
ورغم أعدادهم الكبيرة ،
وضُعِوا في غرفة تعجّ بالمسافرين
التواقين للذهاب إلى كوكب الزهرة ،
عيونهم مضاءة بذاك النجم ، وهم يسمعون النداء :
أهلاً بكم في وطنكم ، قادمين من "القدس"
إلى مملكة السماء .

الكلام السريع وضع الضجة تحت السيطرة ،
و تّمت مقارنة البطاقات مع شخصيات أصحابها
ممن فُحصوا سابقاً ، حيث في كل بطاقة
ذاكرة لقياس الربح والخسارة في شكل ذبذبات .
بعدئذ ، تقلع بهم المركبةُ باتجاه الحقل الكوني ،
ويصلون مملكة التوندرا حيث موطنهم الجديد .
البعض يختار شواطئ كوكب الزّهرة المليئة بالمستنقعات ،
وكنا نعرف ما ينتظر المسافر في كل بقعةٍ على حدة .

داخل مناجم معتمة
أوصدوا الأبواب على الأمم
وتعاملوا معها أو أساؤوا معاملتها
كأنها أشياء بلا أرواح

وتمّ طردُ المنشقّين الرافضين
إلى غرف التعذيب في (ياغول) .

قسوةٌ لا يمكن أن يفهمها أحد .
ما من مجاز يمكن أن يصورها :
جلادون رسميون باردون يُزوّدن يومياً
بالحنفيات ، والدارات الكهربائية ، والأحزمة .
وثمة أنابيب مراقبة مزودة بمرايا
موصولة بالغرف
التي يربض على جدرانها حراسُ الموت
ساكنين ، لا ترمش لهم عينٌ ،
يتجسسّون بعيون جامدة ، متشفيّة ،
ويراقبون معارك الأسرى الطاحنة
مع الجدران الحجرية .

قُدُماً تمضي الروحُ إلى التوندرا رقم اثنين
لا وقت لديها للتوقّف مع الذكريات
حيث المساكن الضفيرية المشيّدة ،
والتي لطالما حلمتُ مع (نوبي) بالذهاب إليها
لاستكشاف الربيع على المريخ ، الخالي من التلوث .
هناك ، تنمو بعنفوان زهور التوليب السوداء ،
متكيفةً مع التجمّد في الكوكب ،

وعبر سهوب التوندرا يأتي صياحُ الديك المبحوح
ليعلن عن متع التوندرا القليلة .
ومع أن الجميع يبجّلونه ، رغم هزاله وتضوّره ،
هل ثمة شيء لا يعرفُه هذا الطائر
بسبب البرد والفاقة!

ليس سوى الصفصاف القطبي ينمو هناك-
لو أننا نتأمل قليلاً بتلك الخضرة-
تتدلى أغصانه كزهور الكاميليا ،
قاسية كقضبان الفولاذ ،
أوراقه المسودّةُ لا تصلحُ للأكل
اخشوشنت بما يتلاءمُ مع هذا السهل المتجمّد ،
يهضمها الديكُ الذي يقيّدُ صياحُه
بطوناً كثيرةً إلى سلسة واحدة .
حين يقتاتُ على تلك الوريقات
تشعرُ أنك تصغي للمزلاج الأخير يوصد
على طاقة الحياة ، الضرورية للمضي قدماً .
لأن كل ما تراه عينك هو حوصلة الطائر
تطقطق كالقفل ، وحين تزدردُ لقمتها ،
يتابعها الناظر باندهاش وتعجّب ،
بالرغم من أنه يبتسم لكل ما يجري .

أمام هذا الوعر من الأشكال الجرداء الساطعة
جلست "نوبي" ، مقيّدةَ الروح ،
ذلك أن السنوات المريرة للفاقة
تجلب نواميس أخرى
تختلف عن سابقاتها ،
حين تكون الطبيعة متحكّمة بكل شيء .
في تلك الأصقاع الباردة والأخيرة
وجدت في الرقص موسيقى تعزّي الروح حقاً .

مشت عبر الجرد وراحت تنشدُ للربيع ،
حين راح الديكُ يصيحُ والذوبانُ يبدأ
وعلى امتداد التوندرا زحف الصفصاف
فوق مساحات جائعة باتجاه شمس نصف مخبوءة .
لطالما أرسلت نوبي أوراق الصفصاف إلى الأرض
وكتبت : هذه الأوراق هي من غابة الروح
وفوق مروجِ الروحِ تهبّ رياحُ الربيع .
قلبي ثملٌ . أجلَ ، هاأنتَ فهمتَ الإشارة .

كان وقتاً للشرّ حين ابتلع اللهبُ أرضَ "غوند"
ورمى بها كالمغزل في مهبّ النار ،
صانعاً منها عموداً متحركاً من الغازات المتقدة
ومدينةً مهاجرة تعبرُ (دورسفِل) .

وبمقارنة بسيطة ، يفضّل المرءُ
الهواء القارسَ والجلي للتوندرا رقم اثنين ،
حيث الديك الصغير ، بنحوله ورشاقته ،
يتحوّل إلى طائر أزرق ، ساطع اللّون .
مقارنةً بأرضِ الموتِ تلك ،
نفهمُ متعةَ (نوبي) وهي تستنشق أنفاس التوندرا .

حقاً ، كانت تلك ضربتها العبقرية ،
وهي تبتكر شيئاً من أشياء كثيرة
أحصيت سريعاً . وأظنّ أنه يوجد على الأقل
عشرة نماذج للحياة عبر الفلك المحيط بنا .

راقب مشيتها بين ثكنات السجن ،
حين الرجال ، في حلقاتهم الكئيبة ، يبتسمون ،
متضورين جوعاً كالذئاب ، يرفعون غطاء القدر ،
ويندفعون لنهب المخازن ،
فيما ديك التوندرا النحيل والصغير
لا يعكر صفوه طائر آخر في تلك السهوب .

بيد أن (نوبي) ليست ككلّ الفتيات .
لم تجد فائدة من النهوض والاحتجاج
أمام رجال سيتوارون ، حالاً ، في لحاء التوندرا
ويطيحون ، حالاً ، عقلَ العبيد المأجورين .

الحياة التي عاشتها بدت فظةً ، مقلوبةً ،
في المرآة التي عكست أيامها وطرائقها ،
ولم تكن لديها حيلة لتكون أقل فظاظة-
ولم تبدّل من مظهرِها الابتسامةُ الرزينة
التي يرميها ، مرتعشَاً وخائفاً ، كلّ سجين
على تلك المرآةِ التي تبوح بالحقيقة .

أحبّ أن أتأمل طويلاً بالذكرى العزيزة
لتك المرأة التي عايشت كل الأشياء المعروفة ،
من معاناة وتضحية ، وإن كانت الأسماء
قد تبدّلت وصار لها وقعٌ بارد الآن .
حين تُنهَكُ المذابح بالدم المراق
يغيب المقدّس ويتداعى ، دون أدنى شكّ .

كان الربيع الأخير الذي كانت فيه الطبيعةُ حيةً .
في وقت الربيع ذاك ، هلكت الطبيعةُ بفعل رياحٍ
أرسلت أعاصيرَ قوية عبر الجبال
وبرعودها ملأت أرضَ (القشور) .

تعالى زئيرُ الشمسِ ، وتكاثفت البروق .
ما زلتُ أسمعُ الصرخات والآهات- مهلاً ، مهلاً!-
تنطلق من أرواحٍ عمياء وخائفة

مندفعةً باتجاه الله بحثاً عن البرودةِ .
ولم يكن أحدٌ يدركُ أن الله نفسه كان يتلظّى
مع عناصر مصهورةٍ ومغدورةٍ
في لهبٍ جبّار أتى على مدينة (خينومبرا) .

القوةُ الهائلة للخارج كبرت أكثر فأكثر .
والسنواتُ المستحيلةُ توقّفت
حين غمر الفيضانُ كل شيء .
وبالرغم من الأرواح راحت تتمسّك جاهدةً
بآخر ما تبقّى لها من إرثٍ داخلي ،
إلاّ أنّ السيلَ الجارف أتى عليها جميعاً
الواحدة تلو الأخرى .

الصورةُ الذهنيةُ لمصيرهم
يمزّقها السيلُ ، ويجعلها بلا معنى ،
المسرحيةُ التي كانت قبل قليل مسرحيتهم
حاصرها الانهيارُ ، وغمرها فيضانٌ لا يستسلم .
وتناثر الجميعُ إلى خلايا صغيرة
في بوتقة كلية تلبّست جوهرهم
ذائبين في نسقٍ نفسي يوحّدهم .

بعض هؤلاء الناس لا يفقهون شيئاً
صبيحة ترحيلهم إلى التوندرا رقم اثنين

عن طبيعة جريمتهم التي اقترفوها
لكنهم يعون القوة الرهيبة التي تعاقبهم .
ويعرفون أكثر عن الزمن المتوحش
المبذول بين فكّي فريسة ،
الزمن الشفّاف في جريانه العالي ،
حيث المراقبة العاقلة غايته الأولى ،
يطوف دائرياً حول حوافّ الطريدة
في (أنتالكس) ، هناك في أرض الجزاء .

مملكةُ الله ليست من عالم صلب
بل تصير أقل صلابةً مع مرور السنين ،
وأولئك القادرون على التسامي صوب السماء
يرسلون أجسادهم أولاً ، ويتركون أرواحهم هنا .

يمكنك أن تلاحظ جمهرة البشر
الذي اندفعوا من وديان (رند) حين تأخّر الوقتُ .
واشتبكنا بالقبضات مع شبان مشاكسين
ورجال أفظاظ خلف بوابة السفينة .

وكان لا بد للعقلاء من الوقوف
في وجه أولئك الأفظاظ ، بالطبع ،
وخلع أسنانهم لإجبارهم على التوقّف .

أفرطوا في وداعتهم ، ما حدا بالشبّان
إلى تغيير الحال ، على الفور ، إلى سلام أزلي .
في كل أرجاء أرضنا ، الأرواح التي لم تُقاوم
ماتت خانعةً على يد تلك العصابات الشرسة .

الخائفون بحياء والحسّاسون بعمق
تُركوا في وادٍ صغير منعزل ومميت
وذهبوا إلى السماء عن طريقٍ آخر .
ولم يدخلوا البتة إلى صومعةٍ إنيارا .

وعن تلك الأشياء يمكنني أن أروي ،
أنا يد الفضاء التي طوت أكثر من فضاء
على مدى ثلاثين عاماً بين كرة الأرض
والمساحة العارية للتوندرا .
مهنةٌ كتلك تتركُ وشمَها بلا ريب .

ومع مرور الزمن ، جميعنا نملك ما نتحدث عنه ،
وخاصةً ما ليس يأتي كأحلام يقظة من السماوات .
ولولا حضور (نوبي) هناك ككفّارة
هل سيكون للحياة قيمة؟

من أجل أسرى التوندرا
نظّفت ونسجت ، وعاشت حياتها

مدفوعةً بمحبة الإنسان .
من دوني ، لا أحد سيعرف شيئاً
عن (نوبيا) السومرية .

٤١-الطفل

كانت (شبيبا) تجلس ، مستمتعة بأجمل سنواتها ،
تغمرها السعادةُ بالقرب من التابوت الصغير .
فوق التابوت كانت ترقد زهرةُ الحوذان
التي راحت ترعاها ، وتمنعها من أن تشيخ
في مدينة إنيارا .

ومن ثم دخلت (يال) في أجمل سنواتها .
رأت الطفل ميتاً فوق تابوته ،
فراحت تقول بصوتٍ أجش ، يجرحهُ الرنين :
أنت عائد إلى البيت ، فيما نحن باقون
ضد إرادتنا ، في مدينة إنيارا .

ودخلت (جينا) أيضاً . وجينا قالت :
إليك ، أيها الطفل ، تقودني خطواتي .
لستُ مدعيةً . أكنّ لك احتراماً كاملاً ،
يا من خلدت للنوم ، بلا شائبة ، في مدينة إنيارا .

هربت (يال) بعيداً وأخذت (هبه) مكانها .
لم تستطع التفوه ببنت شفة ، بل أدارت وجهها وراحت تحدّق بالطفل المركون بهدوء ، نائماً ، طافياً في نهار النهارات الآتية من مدينة إنيارا .

٤٢-أغنية (ليبدِل) أمام المرآة

حياتي في مكانٍ طريف .
تعال إلى هنا وانظُر إليها والمسها .
وإذا توسّلتَ ومنحتَ بسخاء
فإن حياتي الصغيرة منذورةٌ لك .

خبَبُ حصانكَ تحت عنقودِ كوكبة (القيثارة)
سوف يصنع ذاكرةً ما إن ينتهي .
الحياةُ تختبئ في تويجات بهاءٍ من حرير
والحياة الصغيرة هي أكثر ما يناسبك .

أيها الفارسُ من كوكبٍ متوحّش كالقيثارة
دُقّ على بابي لنخرج معاً في نزهة .
ببذارٍ تغرسها فيّ سوف أحملُ طفلاً
في تلك الحياة الصغيرة التي تناسبك .

إنه لبردٌ قارسٌ ، قارسٌ جداً في الخارج
تعال إلى الداخل وسوف أمنحكَ الدفءَ .

لتفترض أنّ البردَ بين ذراعينا تلاشى ،
أوه ، يا له من تفكيرٍ حارّ في أحضان الزرقة .

الكل سيعشق (ليبدل) ،
ولن يزدريها أحمق ، كما هو الحال الآن .
انظر إلى جسدي ، كم تشتهيه الكلمات
ويشتهيه الانسجام .

٤٣

في زمن السفينة كنّا جميعاً غيلان الحلبة
نتجمهر حول الربة ونختار ، بعيداً عن أي خطر ،
أن نسمع ونشاهد كلّ ما كانت تتنبأ به من ألم وصراع
فوق أرض (غوند) ، لكننا ، ما إن تخبو رغبتنا
ونتحسّس طعم دم في أفواهنا ، كنا نتوسّل للربة
أن تطفئ قنوات الأستقبال ، وتبدّل من السمت ،
وتجعل المنظار يصوّرَ أشياء أخرى .
هكذا كانت فاتورة سفرنا متوازنة الوجبات ،
مثل موت مسائي يعقبه فجرٌ سعيد ،
أهملنا كل الأسئلة التي طُرحت بفعل القنوط
والعذاب الذي تسببت به مستوطَنةٌ نائية .
هذا العنصر من التوازن ظهر لاحقاً
عامل خير ، وبانت (غوند) أرضاً
يانعةً لحلولً الشرّ ، هي التي شهدت أياماً أجمل .

مصوبين عين الاستقامة تلك
غمرتنا مشاعر هلاكٍ آخر في (خينومبرا) ،

ونحن نمخر عبابَ الفضاء الشاهق ،
محوّلين آلامَ الآخرين إلى مناظر وألحان .
وبالرغم من أن روح الفضاء تألّمت لمرأى (خينومبرا)
مثلما تألّمت لمصيبة دورسبرغ ،
رغبنا أن نقتفي آثار أولئك الضحايا
حتى آخر القتل ، كالذئاب تمنح نفسها للذئاب
بعيداً عن أي خطر حين تهجم الأسودُ ،
وتلك القدرة على وضع الضمير جانباً حين يخزُّ بنابه .

ما أكثر المذابح التي شهدناها بأمّ أعيننا
والمعارك التي كنا فيها طرفاً .
كنا نلمحُ القتلى الذين خروا صرعى
ونقفز فوق الجثث ، في انتظار موجة أخرى .

روح الفضاء الوفية نقلت كل هذا
بوضوح ناصع ، ومن دون تنقيحات .
وبالرغم من أننا كنا نرى مشاهد مرعبة أحياناً
تجعلنا نتسمّر في أمكنتنا ، إلا أن المناظر كانت كثيرة ،
ولم تكن الذاكرة لتحفظ إلا أسوأها .
وكنا ، لذلك ، نسمّي الذرى ، ونخلع من أذهاننا
الخلجان التي تركنا الآخرين أسرى لها .

٤٤

في الغرفة رقم سبعة توجد مصنّفات التفكير .
ثمة قلةٌ قليلة من الزوار . مع هذا ، لديهم أشياء هناك
ليست قليلة الأهمية ، بل وتستحق التفكير بها .
هناك يقف رجلٌ لطيفٌ يُدعى صديق الفكر ،
يهبُ كلّ من يريد القوانينَ الجوهرية للعقل .
إنه يشير حزيناً إلى جمهرة من الأفكار التي كان يمكن
أن تنقذنا لو أنها أُثيرت في الوقت المناسب
وتُرِكت تفعلُ سحرَها في تطور الروح ،
لكنها ، وبسبب أنّ الروحَ لم تكن جدّ واضحة ،
تُركت معلقةً في كوخ النسيان .

وحيث أن أيامنا الخاوية كانت تجرّ أذيالها
كان يأتي إلينا ، بين الحين والآخر ، فضوليٌ
يرمي نظرةً على مسار تفكيرنا ، ما يدخل المتعة
في النفس ، لكنه سرعان ما يشردُ
ليذهبَ فضولُه أدراج الرياح .

٤٥

الآلة الحاسبة التي تعمل طوال الوقت
لقياس الحد الأدنى من الأمل
كانت تتجاوز تحليق أفكارنا
حتى إن الأمر بدا مضحكاً
حين أُريقَ فعل التفكير ذاته
فوق جليد الكمال .
ويضحك الدماغ
بالطريقة التي تناسبُ الأدمغة ،
مثل متكبّر فضحته زئبقية العقل ،
أو وحش ذهني حوصر كلياً
بالأرقام التي تصدرها الآلة الحاسبة .
هزة كتفٍ ورثها من سحيق الماضي
هي كل ما ينتهي إليه : الازدراء الجليدي للعقل ،
ذاك العري المرير ، وابتسامة العالم الهازئة .

٤٦

نصغي يومياً للنقودِ الصوتية
التي مُنِحت لكلّ منا
والتي تصدحُ من مذياع الإصبع
في اليد اليسرى .
نتبادل النقودَ من فئات مختلفة :
وكل منها تعزفُ قيمتَها
وعبر الليرة التي بالكاد تزنُ حبةَ قمحٍ
غناءٌ يصدحُ كصرصار في كل يد
مزهواً ببياضه ، في أرض التيه هذه .
وعبر مذياع الإصبع في خواتمنا
نبقي على بعض العلاقة مع الأشياء حولنا .
الآن تعزف مقطوعات العشب ألحانها
وتجيبها مقطوعات القصب بألحان أخرى .
يدها مضمومةٌ بقوة فوق خدّها البهي
فيما مذياع الإصبع يضغط على تاج أذنها ،
(هِبة) تصغي لغناء الليرة ،

لكنها تجفلُ فجأةً ، وتبدّلُ أحلامَها
فوق مذياع إصبعِها : جداول مباغتةٌ
من موسيقى المتعةِ تسحرُ أذنَها .
أسألها فور انتهائي من رقصتي
لماذا أجفلتِ؟ وتجيب :
التقطتُ نداءات استغاثة ورحمة .
هذه الليرةُ تحملُ صرخةً من أرض (غوند) .

٤٧

فيلسوف عدد وأحد المتصوفة ممن
ينتمون إلى مدرسة الأعداد الألفية
تعوّد أن يتردّد إلى سفينتنا ، حاملاً
بطاقة استقصاء مملوءة ، لتغذية أجهزة (غوبتا)
ينحني صامتاً أمام (إساجل) الجميلة
ويغادر على رؤوس أصابعه مقصورةَ إنيارا .

(إساجل) ، التي وجدت الأسئلة متوازنة ،
تأخذُ قطيعَ معادلاته وتشفّرها
لصالح موقع التفكير الثالث في لوح (غوبتا) .

وحين غيّرت مجموعات الأعداد
وعدّلت بحذر شديد أزرارَ الحساسية
راحت تحمل الأسئلة إلى عربة (غوبتا)
وأضافت إليها مساعد الفضاء (روبرت)
المؤتمن على أدمغتنا من أثقال العدد .

حين عاد منسّق أعدادنا
كان على (اساجل) أن تخبره كيف تستوي الأرض :
بالرغم من كل محاولات (روبرت) العنيدة
فإنّ تساؤله لم يلق إجابةً حتى من لوح (غوبتا) .
كان السؤال متعلقٌ ب "نسبة المعجزة"
في الكون المحسوبِ رياضياً .
وبدا ذلك متقاطعاً مع المصادفة ،
حيث المصادفة والمعجزة ذات أصل واحد ،
وجواب واحد يفسّر هذه أو تلك .

أما الدكتور "كمّية" (نستخدم تلك العبارة)
فاكتفى بانحناءة صامتة ، مستسلماً للحزن ،
هابطاً على رؤوس أصابعه ممرات إنيارا .

٤٨

شاعرةٌ نهضت من حطام عالمنا
بأغانٍ جدّ جميلة رفعتنا علواً
خارجَ أنفسنا ، وعلواً باتجاه نهار الروح .
صهرت ذهبَ عزلتنا بالنار
وأرسلت السماء إلى بيتِ القلب ،
مبدّلةً دخانَ الكلمات إلى بهاءٍ خالص .

كانت مواطنةً من أرض (رند)
وأساطير (رند) التي تغمرُ حياتَها
أضحت جميعها نبيذاً مقدّساً .

هي نفسها كانت عمياء . منذ ولادتها
كانت طفلة آلاف الليالي ،
لم تلمح يوماً ضوء نهار ،
وبدت عيناها العمياوان
أرضَ بئرٍ مظلمة ، وبؤبؤاً لكلّ الأغاني .

المعجزةُ التي جلبتها معها
كانت لعبةَ روح إنسانية أمام روحِ الكلمات ،
لعبةَ رؤيا أمام عذاب ونحيب .

كمّت أفواهَنا قداستُها
وأعمى أبصارنا جمالُها
في فضاءاتٍ لا قعر لها
رحنا نصيخ السمعَ لأغانٍ
تؤلّفها في الظلمة عن أرضٍ (رند) .

٤٩- المرأة العمياء

الطريق الأطول الذي سلكتهُ إلى هنا
من (رند) إلى هذه الأصقاع ظلامٌ في لونه
مثل الطريق الذي سلكتُه في (رند) .
ظلامٌ كما من قبل . كما دائماً .
غير أنّ الظلام صار أكثر برودة .
هنا بالذات يمكن الفرق .
الظلام الذي يكمن احتماله فارقني
والظلام الباردُ أتى على صدغي وصدري
واستوطن إلى الأبد .
هبوبٌ رهيبٌ في الحور الرجراج
راح يصفر في الليل . رحتُ أرتجف .
إنه فصل الخريف . قيل إن شجر القيقب يشتعل ،
لأنّ ثمة غروباً في الوادي القريب .
والغروبُ مائلٌ للحمرة
بخطوطٍ برّاقة وأرجوانٍ مسائي .
أمامه تنهض الغابةُ ، كما قالوا ،

تلتهبُ في الليل .
ذكروا أيضاً أنّ الظلال تحت الأشجار
كانت أكثر بياضاً من ذي قبل
بسبب قدوم الصقيع
وكأنّ العشب شَعرُ الصّيفِ
يغزوهُ الشيبُ بسرعة .
هكذا وصفت لي :
قطرةٌ من صقيع طازج بيضاء كالذهب
تتوهّجُ حين يسدّدُ الصيفُ بالكامل ديونَه
لجابي الضرائب ، البرد .
ومبالغاتُ الخريف الرفيعة وصِفت أيضاً :
كل الأشياء الشقراء ارتمت في قبر الصيف .
البهاءُ الذي امتدّ أمامنا ، كما قالوا ،
كان مثل مأتم وفق طراز غجري
تناغم القماشُ الأصفر مع الأحمر
والزركشات الذهبية من إصفهان .

لكنني وقفتُ صامتةً ، نهباً للبرد ، في الظلمة ،
أصغي فقط لكل ما أحبّ أنّ يتلاشى
في ريح باردةٍ ومظلمة ،
والخشخشة الأخيرة للحور الرجراج
تخبرُ بأنّ الصيف سيرقد ميتاً في أرض (رند) .

بعدئذٍ غيّرت الريحُ وجهتَها
وفي اللّيل
ارتفعت الحرارةُ السوداء المرعبة .

أسقطُ بين ذراعي شخصٍ
يركضُ نحوي ،
وهذا الشخصُ أرعبني .
كيف يمكنني في تلك الظلمة الحارة
أن أعرف من أمسك بي حين سقطتُ ،
وراح يعانقني .
أهو شيطان أم إنسان .
لأنّ الزئيرَ تعالى ، وانتفخت الريح الحارةُ
وتحوّلت إعصاراً ،
وذاك الذي أمسك بي
راح يصرخ أعلى فأعلى
إلاّ أن الصوت بدا بعيداً ونائياً :
احمي عينيكِ .
وصرختُ بأعلى صوتي
وكان جوابي زعيقاً : أنا عمياء ،
وبالتالي أنا في مأمن . لم أرَ أبداً أرض (رند)
لكنني لطالما شعرتُ بها أبداً .

أطلق سراحي ، وفرّ ناجياً بحياته ،
إلى حيث لا أعلمُ ، في زئيرِ الليل الحارّ ،
يغيّبهُ هديرٌ أعلى مباغت
من رعودٍ قاصفةٍ تأتي من بعيدٍ
تتدحرجُ نحوي ، وأنا عمياء .
وسقطتُ أرضاً من جديد ، وهربتُ زاحفةً .
زحفاً قطعتُ غابات أرض (رند) .

نجحتُ في الوصول إلى فسحةٍ وسط الصخور
حيث لا أشجار تتهاوى ،
ولم تكن الحرارةُ شديدةً .
استلقيتُ هناك ، سعيدةً تقريباً ، بين الصخور ،
وبدأت أصلي لإله (رند)
لمساعدتي وحماية روحي .
من قلب الهدير دخل أحدهم الفسحةَ
(أوه ، أية معجزة)
وحملني باتجاه عربة ذات مقصورات مقفلة
أحدهم راح يتنقّل بي طوال الليل
ذاهباً باتجاه مطار (رندون) حيث وكيل لاجئين ،
أصمّه صراخٌ عنيف ، أدخلَ رقمي واسمي
وأمرني بالالتحاق بأولئك المنتظرين على متن السفينة .

السنوات التي انقضت لاحقاً شكّلت مصيري .
فوق سهوب التوندرا على المريخ
مثل مبعوثة أرسلتها (رند)
تعلمت كيف أوقظ الحرّاس
بأغانٍ حزينة عن مصير جدّ قاسٍ .
تعلمتُ كيف أقرأ المسيلات القويةَ
للوجوه بأصابعي ، وعلى طريقة (بريل) .
ومثل مغنية تنشد لحن (أنقذوا التوندرا)
كنتُ أعودُ القهقرى كمن تعود إلى وطن .
كان الجو قارساً جداً ،
وحياة النباتات مجروحة في الصميم .
غير أنّ الإرادة العنيدة لم تتراجع عن خطتها
في إنقاذ التربة عبر مادة جديدة كل الجدة
كان العلم قد اخترعها وهي : جيوسان .
لا يمكنني أن أشرح كيف تمّ ذلك ،
وكثيرون ظنوا أن الفكرة قد ترتد بنتائج عكسية .
"ما لم يقدر على فعله أحد ،
لكنها كانت رغبة الجميع ،"
وأضحت الخطة موضع نقاش عامّ .
أما أنا فتركت بيتي وإلهامي ونهضت
من أجل أغانٍ عن أرض (رند)
وسعيت لأشغلَ منصب المغنية

في الغرفة رقم ثلاثة .
أنا الآن هنا أغني : "آه الوادي ، آه أنا!"
أو "العصفور الصغير بعيداً في غابةِ الورد ،"
وأيضاً "أغنية الحديد المصهور" التي يردّدها
أحدُ أهل (رند) هنا على متن السفينة .

كل صراع من أجل السماء
هو صراع من أجل المتعة
وغاية كل قلب هي الجنة .
كم مؤذ إذن أن تقودَ
وتحشد قوى الظلّ كل أولئك
الذين أعماهم الجشع والغضب
إلى صراع مميت ، حاملةً رايات
الثأر والكراهية واللاتسامح .

كم هو صعبٌ على الجنس البشري
أن يدرك بأنّ الحقيقي هو دوماً
رغبة طبيعية قابلة للتحقق .
كم هو من الصعب أن يكتشف طريقه
منذ البداية .
كم صعبٌ أن تقف هناك تهذي
قرب المذبح متوسلاً إلى إلهٍ نعلم

أن أكثر ما يحزنه هو عدم التقيد بقوانين
تخدمُ قضيته .

كم هو صعبٌ أن تجعل الإيمان
يتناغم مع الحياة اليومية .

كم هو صعبٌ أن تفهم إله التضحية .
كم صعبٌ أن لا يراودنا التفكير في صمتنا :
هل يجب أن يسفح المزيد من دم الضحايا
أما آن للقتلة أن يختفوا؟

كم هو صعبٌ أن لا يراودنا التفكير
في صمتنا .

وأعمال الرّحمة ، كم يصعب فهمها
لمن لم يتحدّث يوماً مع الموتى
ولم يلق جواباً من تلك القبور
أو يرى حوريات يحملن عصيهن السّحرية .
إذ من خلف حجارة القبر
لم يرجع أحد سواه ليقابل ربه ،
فيما الجميع صمّ ، بكم ، وعميان
يتخبطون في بؤس تفسّخهم
حتى مرور الزمن برمّته .

كم صعبٌ أن تحتفظ بإيمانك
لحياة أخرى قادمة .

كم عدلٌ أن تكون لك أمنية
عن حياة قادمة ستأتي .
هذا يشهد لمتعة في العيش
ولرغبة جارفة بأن ترى روعتها من جديد
لا أن نموت بكل بساطة
مثل ذباب على شاطئ .

كم هو صحيحٌ أن تشهدَ متعةً في العيش
كم هو صحيحٌ أن يضعَ المرءُ
حياتَه فوق موته .
كم هو صعبٌ التخبّط في غياهبِ القبر .
كم هو سهلٌ الإيمان بحياةٍ ستأتي .

غارقةً في الأرض ترقد الأجيالُ
في حقول عمياء قاحلة تحت ريحِ الربيع
مثل جوقة منشدين ترفع أصواتهاَ عالياً
في نشيد رجالٍ عميان يبكون أرض (رند) .

ومع أطراف أجسادهم الملتصقة بالتراب
يحتفلون يومياً بإلههم الذي فقد عينيه
والذي يعرف كلّ الأشياء
ولا يحتاج إلى بصرٍ ليرى
أشكال الحياة التي ابتكر أسمالهَا .

العناصر الشفيفة تتعفّنُ وتذوي ،
والعناصر الصلدةُ لا بدّ أن تثبت مكانها ،
غير أن الوقت يمرّ وسرعان ما يبزغُ النهارُ
وتتفسّخُ العناصرُ الصلدةُ ذاتها وتذوي .

حالاً انضمت جوقة المغنين
واعتلت رؤوس الأشجار ،
كلما مرّ نسيم تنهدت ورقة
حتى إنّ الموت ، الذي يحضنُهُ الصيفُ ،
بدا جميلاً في سطوته الحارّة .

بلا نرجسيات ، تمضي فصولُ الصيفِ ، عذبةً ،
كذا تفعلُ روحُ الحياة ، تمضي كالسرابَ ،
مثل فصول الصيف في مرورها الحلو
حيث كل سنة تأتي
تراها ترتدي زياً جديداً .

مأخوذين بالدهشة كنا نصغي للسيدة العمياء ،
وبشفاهٍ محكمة الإطباق رحنا نغمغم :
يا للكلمات الجميلة التي حضرت لإسعاف مخيلتها .
يا للكلمات التي وقعت عليها في أرض (رند) .
لكنها كلماتٌ فحسب ، ومحض قبض ريح .

٥٠- ساندون المهرّج

كان المهرج العظيم (ساندون) يعيش في الفضاء
وتغمره الغبطة كلما اتّحد رجلٌ بامرأةٌ
في أحاسيس السنوات الضوئية .

حين تحرف الشمسُ
أشعّتها عن جمهرة المبعدين
كان (ساندون) المهرّج يقفزُ
فوق شلل كوابيسنا .

حين تهبطُ درجةُ المرح إلى الصفر
جرّاء شموسٍ تحدّق في البعيد
كان (ساندونٌ) المهرّج يمنحُ صوتاً
لصريرٍ شبه الغمغمة .

كنا نهلّلُ حين يعتلي المنصة
بسيارته ذات الدواليب الثلاثة

كلمات الشكر كانت عويلاً
وكان يجيب بصوت كالغمغمة .

غير أن كل شيء هوى في القبر
وسكتت فرحة الروح .
المهرج (ساندون) ضاع هو الآخر
في بحار الكون الشاسعة .

منهكاً ومحطماً تثقلُ كاهله هموم الإنسان
تخلّى المهرج العظيم عن تهريجه
وراح يكمل دورة حياته .

٥١

امرأةُ العالم ، ورقةٌ ذهبية جميلة
فوق غصن شجرة من نبلاء (ييدس) ،
ممشوقة القدّ ، شعرها المفروق يساراً
بدا أزرق اللون ، وبدا الأيمن فاحماً ،
وبمشطٍ من الحجر البهي
المصهور من نار (يابيان) الأكثر ندرة
صنعت كعكة شعرٍ مدورة ،
معقودة أعلى الرأسً ،
ثم راحت تصف لامرأة أخرى من (ييدس)
كيف أنها نظرت من مقصورتها
صوب البحر حيث القمرُ
يرتفعُ كفانوس تامّ
محاطاً بهالةٍ خافتة من لون الخريف .

التقيتُ هاتين المرأتين ذات نهار
حين كنت أنقّي ذرات روح الفضاء
حائراً بين الصدمة والخلوة .

ذات مرة التقطت حاسةُ السفينة
بهاءهما الجذاب ، ومعجزة جمالهما ،
وعيونهما من (بيدس) ،
واللغة التي تكلّمتا بها ذات يوم
عند شواطئ بحر (ستوكيدي) .

يخطر لك أنّ روح الفضاء لم تعد معنا .
يخطر لك أنّ قائدنا الأكبر ميت .

لا أستطيع أن أفهم ذلك . لا شيء له معنى .
الإلهة ميتة من الحزن . ونحن نشاركها المصير .

٥٢-ذرات من روح الفضاء

انظر إليها ، تلك التي تمشي مشدودة القدّ
وترتدي آخر زي ، مثل دمية .
آه ، يا أنا ، إنها دوماً قرب البحر
الذي يمتدّ من الأطلسي إلى مدينة (تيب)
في سريالية أفرودية
حُفظت إلى الأبد من التفسّخ
ضد الزمن والملح .
لا تصدق ذلك .
ظلت المرأة تتقلب لأربعة ملايين سنة ،
وما من أحد ، حتى الثقافة القوية
التي رفعتها ، تركت أثراً يُذكر .

آه ، أي جمال .
إلهي ، كيف صنعت ذلك؟
وأية ثياب عصرية وجميلة .
(هبة) ، هل ترين

ذاك الحزام السّاحر
والثنية عند الخصر .
يا له من انتباه فائق
لاحتمال عيش النساء
حياة ثيابهن في الزمان ، فصلاً وراء فصل ،
ممتزجة كلياً بالفن والجمال
حتى إن أرضيتها الخلفية هي البحر
في (كيب) الأطلنطية .

إلهي ، كيف فعلت ذلك؟
أين هو الألم الأعظم؟
هل فيك أنت يا من تجمعُ كلّ شيء؟
أم فينا نحن الذين نرى وندركُ
كيف تُجمَعُ كل الأشياء؟
جبروتكَ- ضعفنا .
أطفأ الأنوار . نريد أن نذهب للرقص .
ألا ترى؟
هي رقصاتٌ من كل الأنواع اقتطعناها من
أرض (دورسبيرغ) .

٥٣-السهم

في سنتا الحادية عشرة رأينا رؤيةً ،
تُعتبرُ من أكثر الرؤى ضيقاً وثانويةً :
سهمٌ يسافرُ عبر الكون .
كلانا كان قد أتى في الاتجاه ذاته
ولم يغيّر مساره أو ينحرف .
كانت سرعته تفوق سرعة سفينتنا
وهذا ما جعله يمرّ كالبرق ويتجاوزنا .

لكننا جلسنا جماعات بعد رؤيته
نتحدّث بإثارة عن هذا السّهم ،
عن أصله ومنشئه .
لم يعرف أحد ، ولم يكن أحد ليعرف .
بعضنا حاول التكهّن ، لكن لم يصدقه أحد .
بل لم يكن قابلاً للتصديق ،
وافتقر إلى المعنى كقضية إيمان .
كان بكل بساطة يطيرُ عبر الكون .

وسهمُ السفينة تتبّع مسارَه الخفي .
مع ذلك فإن لهذه الرؤية قوة
غيّرت عقولاً كثيرة :
ثلاثةٌ جُنّ جنونهم ، وواحدٌ انتحر .
وآخر أسّس لجماعة دينية
أفرادها مملّون ، ضاجّون ،
لطالما عانت (إنيارا) من صخبهم .

وكان أن أُصبنا جميعاً بالسّهم ، وفي الصميم .

٥٤-حديقة (شيفون)

لكي تظل لصيقةً بفريق البحث
أقامت القيادة العليا حفل عشاء
في حديقة "الربيع الدائم" ، وهي
نوع من البيوت الخضراء التي تحملها السفنُ معها
ويسمّيها العامةُ متندّرين "الجنان الفضائية الطائرة ."

أفضل ما في المرء يظل صاحياً هناك يحرس كل ما يولد
وهذه جنان عدن مصغّرة حيث لا شيء يتمزّق أو يفسد .

من عتمة الفضاءات المحدقة والآلية المتلألئة للكون ،
يمكن للجنس البشري
أن يعود إلى حضن الخضرة الحية الناعمة .

أفراد قيادتنا العليا جلسوا بمحاذاة فرق البحث
وكان السؤال : كيف يمكننا
أن نحمي "ربيعنا الدائم الخضرة"؟

كيف يمكننا صون حياة النوع من الانقراض
وكيف نحمي متاعنا من "الجنان الفضائية الطائرة"؟

أطرقوا بعيونهم أولاً يتأمّلون الحديقة الجميلة من كل جانب
المحاطة بقناطر تتلاشى في الأرض المكسوة بالعشب .

يا لتمام الصورة : سماوات الربيع المشعّة ، وسياج من شجيرات عدنية
يسوّر ساقية صغيرة تسيل على طول حوافه الداخلية .

عالياً في السماء ، وعلى امتداد البصر ، كان ثمة حمامة تطير .
امرأة خلعت ملابسها وافترشت العشب المكسو بزهورٍ زرق .

نهداها النافران يعززان جمالها البديع
وبدت لي فائقة الروعة ، فيما المساء يرخي ستائره .

وبدا الجمال العظيم للمرأة محط إعجابها هي أيضاً
وهذا ما جعلني أقترب أكثر فأكثر من المشهد .

وبالرغم من كثرة الكحول الذي احتسيتُ مؤخراً
لم يسبق لجمالٍ أن أوجعني مثلما فعلَ جمالها .

ورحتُ أفركُ عيني ، غير مصدّق أنني كنت صاحياً ،
إذ إنها "حورية الجبل" التي حملها التنين يوماً بعيداً .

الأغنية الفلكلورية القديمة التي لم يكن يغنيها أحد
أضحت حقيقةً هنا في البحار التي يجوبها البحّارةُ .

هاهم نسوا مغامرتهم ، وراحوا يحدقون بالمرأة العارية .
هل يمكن سلبها من الجبل؟ هل يمكن تخليصها من التنين؟

وأنا ، بالرغم من كوني ضيفاً في غرفة القيادة ،كنت أريد
أن أعرف كيف ينظم التنين حياته ، كيف يتصرّف ويحيا .

سألتها : كيف حدث ياجميلتي ، العارية ، الساحرة
أن تصبح هذه الحديقة حيث تسكنين عريناً لهذا التنين؟

أجابت : أنا واحدة من سكان (سومبرا) المشرئبة بالنيران
وأنت من أوائك الذين أحرقوا الحياة في (خينومبرا) .

كراهيتي لشعبكَ قاسيةٌ مثل عناقي الحميم
لكلّ شجرة ، ولكلّ نبتة ، في "جنان الفضاء الطائرة" .

بعدئذ خيّمت العتمة على غرفة (شيفون)
ما إن دخلتُ ، مذهولاً ،
وتعمّق شعوري الداكن بالعار وتضاعف .

وكان علي أن أتضور ألماً تحت نظرة الحورية العبدة
وأن لا أجد أي معنىً لكل ما راح يحدث لاحقاً .

بصمت انحنيتُ أمام عريها ، وابتعدتُ ماشياً ،
مثل كلٍ الطيور التي ترفع شدوها إلى أعلى السماوات .

وحيث (شيفون) لم يكن مكترثاً لبقائي أو ذهابي
خرجتُ هارباً من "جنان الفضاء الطائرة" .

لكم فكرتُ لاحقاً بالمرأة الجميلة العارية
ولكم حسبتُ نفسي رفيقاً دائماً للتنين .

٥٥

قرب ردهة جهاز عرض الكواكب ، المحمي
بإناء ساطع شفاف مزخرف بالضفائر ،
أخليت ممرات الإقلاع ممن تسول له نفسه
استخدام ردهة الجهاز لنزهة هادئة
ورؤية سطوع الكوكب الملتهب يقترب منا
صاعداً من خصلات (البيرنيه) المنسدلة .

الفلكي- المتواضع بحكم مهنته-
يخبرنا كيف يسير الكون لاهياً
في المجرات البعيدة حيث نجوم مستعرة
تشرئب باللهيب ، وحيث تتعب منابع الضوء
بسبب هداياها الكثيرة ، تنكسر على حين غرة
ملفوحةً بالغضب ، وتقذف اللهيب
الذي يشبه جذوة حب مكبوت
باتجاه أشعة الصور الضوئية الخائنة .

مدمنُ فضاءٍ متعجرفٌ يصغي باحتقار
وبلهجة كاسدة من (غولدنيا) الآفلة
حيث يمكن للمرء مباشرة أن يتعرّف
على هوية الشخص من (غوند)
يرمي مشمئزاً جملةً بيننا
تتطاير إلى همسةِ تأنيب
تتناسب مع عبوسه الفضائي المتعب .

هذا ما جعل فلكي السفينة يتجمّدُ في مكانه
وينهي معتذراً عرضَ المساء الذي يتحدّثُ
عن نقاطٍ مشوّقة في البحار الكونية .

٥٦

ذات ليلة التقيتُ (شيفون) في الممر
متوجهاً إلى غرفة المراقبة رقم ثلاثة .
باحتقار سألني : "ماذا تقول العصافير
هذه السنة ، طيورُ (دوريس) من القرقف والسُّمانى؟
وهل تعافت الربّة من وعكتها؟
رأيتكَ تبحثُ طويلاً وتعاينُ
أسفل صدرها وما أصاب قلبها .
ربما عثرتَ على مكمن الألم ."

نطقتُ بسلام مقدس مألوف في السفن
وقلت له إنها ماتت حزناً .
ورغم أنها قارئة للمستقبل ،
لكنها لم تكن ترى خلاصاً
للبشر المسجونين داخل هذه الدوامة .

قهقه (شيفون) وكأنه رأى
أكثر المشاهد هزلية في أروقة السفينة
وودتُ أن أنهار في يأس أخرس
متذكراً بيتي في وديان (دوريس) .

لكن (شيفون) ، الذي أرهقته الدموع ،
مضى في طريقه ، وتركني أقف جامداً ، بارداً ،
مستذكراً فصول الربيع على مدى آلاف السنين
وقد تحولت شتاءً قارساً داخل بهو السفينة .

هل سنلقى الخلاص أبداً
في (إنيارا) بعد تلك الحادثة؟
أتطلّعُ يمنةً ويسرةً في كلّ زاوية
لا أرى شيئاً ،
ويغمرني اليأس من كل منطق أو رغبة .

٥٧

انهيارُ الجميلة الشقراء (ليبدل)
جاء بسبب المخدر الذي وضعته على لسانها .
أنشدنا بالقرب من قبرها
حيث اللهب استولى عليها ،
وبدت أقل شباباً .

ضمائرنا اهتزّت وحوصرت
داخل خبايا ساخرة مكسوة بالجليد .
وانسدّت طبقات الضريح الكتيمة
في دوائر حيث ينهار الحب ويعلوه الصدأ .

٥٨

دينٌ منافس للطائفة يتشكّل
يلهمه عذابُ الظلمة وثقلها .
إنهم يعبدون الضوء كمفهوم وكلهب :
وإلهة هذه الطائفة الجديدة هي النار .

الكاهنة المختارة هي سيدة من (رِند) .
وجوقة المنشدين تنبثق مثل ريح قوية
حين تعتلي تلك المغنية ، ذات العينين المطفأتين ،
منصةَ المذبح ، مثل شرارة مشتعلة .

إنها تنشد أغانيها عن إله الضوء
وتشهد كيف أنها في بلاد (رِند)
تجلسُ وتتأمّل الضوء ، حيث بشرتها
وسيلتها للرؤية .

والرؤيا تحرقها . هذا ما يعينه
أن يعمي إلهُ الضوء بشرتها .

النشوة تغمرها . لا أحد يلقي بالاً
لما تقول ، لكنّ انبجاساً قوياً
لأصواتٍ إنشادية ترفعها إلى الأعلى .
ولأنها عمياء ، محاطة بآلاف الشموع ،
مرتدية معطفاً واقياً من النار ، يحيط بجسدها ،
اقتربت أكثر من جدار المشهد الضوئي ،
صارخةً ، تنادي الضوء من أرض (رِند) .

لطالما اقتربتُ من تلك القاعة
حيث تجتمعُ الطائفة ،
وعليّ ، وعلى آخرين كثر ،
تركَت علامتَها ،
في هذا البحر من الظلمة .

٥٩

في قاعة الذاكرة انطلقت مهرجانات المرتدين
والمنغمسون بينهم أعمق في الرّدة ، تجمهروا ،
رماد منثورٌ فوق قدروهم ،
وراحوا يعذّبون أنفسَهم بأناشيد الردة .

"قف واعترف . جدران الغضب العظيم
تطوّق المصيرَ الذي هندسنا له .
قدرنا صورة كالمرآة للأقفاص
التي سبق ورفضناها حين كنا طليقين .

حين تنهي الأعذارُ الجيدة براهينها المزيفة
تجعل المرآة (أرض الموتى) ملكاً لها
وأتون المرآة ، فكن حذراً واحفظ أصابعك .
إنها تعكسُ ما يُقالُ وتعكسُ ما يُفعَلُ .

يوماً وراء يوم أسمعُ من فقهاء الندم
أناشيد رهيبة تتصاعدُ

وأشعرُ بالهلع . هل يمكن لأحد
أن يتجاوز وطأة الذات الممسرحة هنا؟

بالنسبة إلي ، أن أجد علاجاً هو الأمر الملحّ ،
علاج يوقظ الأنفاس المهشّمة للسفينة
ويعيد رتق الخلايا الأثيرية
التي انفلقت بسبب كاسحات
من أرض الموت .

٦٠

ومع الآلاف التي تتنصّت بقوة فوق ظهر السفينة
كان جميلاً أن تسمع النبرات الغنائية
لعالِمنا الفلكي وهو يتحدّث
عن أزمنة عصور الجليد .

وأشار إلى عبثية الحديث عن الزمنِ الكوني
الذي نقيسه بالساعة بوصفه حتميةً
حين تُظهِرُ الإيقاعاتُ الكونيةُ نبضاً آخر
يختلف عن ذاك الذي تعتبره الثقافةُ مركزاً .

تلك الأجيال المنذورة لمصير كهذا
كان يمكن أن تغطس في الرمل لآلاف السنين
حين يستخدم الفضاء قبضته العملاقة
مع كلمة واحدة متأخرة من يد عصر الجليد .

وعبر صُور سهلة يسردُ بحرية
قصةَ آخر تجمّدٍ ، حين انزلقت

جماليات فلك القرن الثالث والعشرين
عن عروشها ، بسبب حالة التجمّد تلك .

إمبراطورية الألف سنة
كانت على وشك أن ترى النور
حين بعثَرَ ليلُ الحرب فجرَها
كانوا على وشك أن يحفروا موقعاً آخر
حين انفطرت المشاريعُ الإنسانية
وانهارت إلى الأبد .

مسّت الشمسُ مدار (غولموس) البارد
وبدأت الشمسُ رحلةً عبر الليل الطويل
في لعبة الظلال التي ضربت عالَمنا
بأغنية الريح القادمة من عصر الجليد .

وامتدّ الغطاءُ حتى وصل القطبين
عبر مساحات الأرض . واكتست
السطوح أوسع فأوسع بشراشف الجليد
بلغت سماكتها آلاف الكيلومترات .

لم يخيّم فقط الثلج القطبي وحده–
النظام السداسي القاهر للمدار–

بل هطلٌ كوني من قلب السديم
مكثّفاً فصول الشتاء إلى دهور .

درعٌ جليدي غطى أوربا كلّها ،
ثم تحجّر ، مخفياً تحت كعكته العملاقة ،
لستة آلاف شتاء ،
والذي لا يمكن أن ينفذ إليه
شعاع شمس واحد ،
مواطنون من أمم أوربا كلها
حملوا خبرتهم التقنية باتجاه الجنوب ،
ومكثوا لبعض الوقت ،
لكنهم سرعان ما انهاروا ،
متجمدين في صقيع اللامبالاة .

وكان الناس برابرة
على مدى اثني عشر ألف سنة
مصطرعين ، متقاتلين ، تاركين العلم خلفهم ،
منتظرين الشمس لتخترق غابات الطبيعة
وممالك العقل .

وعلى مدى أجيال ، منهمكين في طواحينهم ،
بين دواليب وأسلاك الآلات المتوحشة ،

كان عليهم أن يتدربوا من جديد
على أقدارهم القاسية
وعلى التأقلم مع مشاهد عصر الجليد .

آلةُ الجليدِ تتركُ الشمسَ الآن ،
غير أن البشرية قبل عصر الفضاء ،
وعلى مدى خمسة عشر قرناً ،
كانت تراها كقطعة قماش ،
أو كنسيجٍ من حريرٍ داكنٍ كالفحم
يرتفع كلَ مساء في سماواتِ الليل
أسودَ بوشاحِ الأرملة
الذي يخفيَ المجرّة .

مع ذلك ، ظل النسيج الأسود يخبو ،
متلاشياً في أصقاع السماوات ،
متراجعاً بالتدريج في المدى البعيد ،
فاقداً هيئة القماش الجنائزي .
وبعد مرور أحد عشر ألف سنة
على العصور الأولى
حين تركت الشمس مدار (غولموس)
متقدمةً إلى الأمام بتوهّج كامل ،
غادرت هذه البقعة من الكربون بكليتها تقريباً

الخلفيةَ المضاءةَ حديثاً لصحنِ السماء .
في تلك الأثناء بدأ الثلج بالذوبان :
أجيال جديدة حالفها الحظ
لرؤية فصول جديدة من الربيع
في أرض (غوند) .

٦١

بالرغمِ من الصعوبات الكبيرة اخترعتُ
شاشةً مؤلفة من نوعين من الأشعة .
تعلّمتُ كيف أرمُ الشاشةَ ظاهرياً
في الفضاء على بعد أميال من السفينة .
فوق هذه الشاشة المشعة كنتُ
أمرر شعاعاً ثالثاً يصبح موجة الفيديو .
بتلك الطريقة كان بالإمكان
أن أنظّمَ في الفضاء ،
عبر صور تشكّل ما يشبه الحائط ،
نوعاً من الستارة -الصورة في الخلاء .
وجعلت تلك الصور تفور بمناظر الغابات
والبحيرات المضاءة بالأقمار ،
أو بحوافّ الجبال والمدن .
أحياناً كنت أملك طاقة كبيرة وجبارة
من رجال يزحفون برايات النصر الخفّاقة
وهدفهم تجميع السراب من الجدران
لإخفاء فضاءٍ رهيبٍ لا يطاق .

وسرعان ما كنت أبني حائطاً آخر
في الفضاء ، ولكن في الطرف الآخر ،
وبين هذه الجدران الغنية بالأطياف
كانت السفينة تمخر عباب الفضاء
بمنأى عن هذه المهاوي الرهيبة
التي لم تعد قادرة على التحديق بنا الآن
مثلما تعودت أن تفعل
خلال السنوات التسع الماضية
بنيازك تلدغُ وأضواء تلسعُ كالإبر .

ولكن حتى مبالغات المخيلة
تحتاج لإرادة إنسانية تدعمها :
قليلاً ما تمنحهُ الأحلامُ في الداخل
من أولئك الذين يطلبون ذلك ،
لكنهم لا يعطوننا سوى سواد خوائهم ،
مثل هوة تنتظر أن نسدّ جوعها
بالصور الجميلة .

هذا الخواء استدار نحوي الآن ،
وحوصرت في أكثر زوايا السفينة سوءاً ،
وتلقّيتُ تهديدات بالموت
إذا لم أقم على الفور

بتقديم إيضاحاتٍ عن السبب
الذي يجعل الخواء مخيماً .

أخبرهم عن ماضيه وحاضره :
إذ لا أحد يمكن أن يحجب
شعور المرء بالخواء .
كشيء يسقط ويتبعثرُ
وأمام تلك الموجات
انكسرت روح السفينة ،
والشيء المكسور عصي على العلاج ،
فمن أنا حتى أقدم علاجاً .
شعوركم بالخواء مريع ، وهذا ما أحسّ به .
وأنا أفعل ما بوسعي
بمعونة هذه الفنون السحرية
بما لا يتناسب مع تعب الروح المبذولة
وأنتم لا تغدقون شيئاً من قلوبكم .
هذا يفسّر لماذا لا يكون للصور فائدة تُرجى .

٦٢

نجرب دولاب الروتين . على رجال الفضاء
ألقي محاضرات عن نظرية (غوبتا) السحرية .
عبر نافذة الأفق ، تتسلل الشموسُ إلينا ،
هادئة النظرات ، رغم أننا نعي أنّ
زئيرها الرعدي يتعالى في التخوم البعيدة ،
ناثراً أشعته في غياهب الأبد .
وحيث أنني أسمعها تتردّدُ في رأسي
مثل ضربات طبل مخيفة في الحرب
التي يشنها الضوءُ أبداً
ضد القوة الغاشمة للظلام ،
أكادُ أسمع صوتي أيضاً يجيبُ ،
عن الأسئلة التي كنتُ طرحتها
عن النظرية الخارقة .

"في هذا العصر الجديد وتقييماته
ومع انتشار مذهب التحليل

انفتح الطريق لاحتمال إيجاد
تناسق متوازن قامت بتبسيطه
صيغة (غوبتا) وبرهنت على صحة المقاربة
مع كل تحليق طويل في عربة السماء ."

نهض خبراء الفضاء على أرجلهم
وغادروا في هيئة نسق
إلى الحجرة المجاورة ،
حيث معلم آخر ،
الهادئ والبارد الأعصاب (تويلاندر) ،
سيلقي محاضرة عن كيفية بناء سفينة فضاء .

٦٣

امرأة ، هي أرملةٌ الآن ، من أرض (غوند) ،
تعودت المجيء مع زوجِها إلى غرفة المناظر .
وعلى مدى سنوات جلسا معاً ،
حاملَين صررهما ، كأنما يتأهّبان للهبوط .
ومع أن كثيرين نظروا إليهما بتهكّم
-ببرودة أعصاب يتسبّب بها الفضاء-
غير أنهما حافظا على آمالهما المؤثّرة
محدقين بثقة باتجاه (أرض القيثارة) .

داخل عقليهما المؤمنين استيقظت
رائحة الزعتر من مروج كانا قد عرفاها
ورائحة الخبز الذي هيأته يداها في الفرن
بعيداً في أرض (غوند) من حيث جاءا .

آلاف من المرات جلسا ، وراحا
يتمليان محيا السماء ، متلاصقين معاً ،

ولا أحد يعلم كم من السنوات
في الفضاء الكوني مرت بصمت
ودون أثر ، ما عدا أن هذين الزوجين
علاهما الشيبُ أخيراً ،
والمرأة صارت وحيدة ، تجلس بمفردها ،
تفكّر بصمت بالأيام التي انقضت الآن ،
حيث زوجها كان لا يزال حياً ،
في الماضي ، في أرض (غوند) ،
إلى أن سمعا جرس الإنذار يعلن :
"آخرُ زوج ، قفا هناك"
ليبدأا رحلةَ الخروج ، البعيدة الشاسعة .

في مهبط (غولدون) ، متلاصقين معاً ،
رميا تحية الوداع الحزينة على (دورسفل)
وبصلاة الوداع ،
فوّضا أمرَ منفاهما إلى القدر .

وعلى مدى سنوات كثيرة
كنت ألمح الأرملة تجلس وحيدة مهجورة ،
خرساء ومحنية الظهر ،
ونحن الذين كنا في الأعالي ،
فيما وراء المجرّات ، نراقب يد القدر ،
اجتاحنا اليأسُ من رؤية أرضِ الميعاد .

٦٤

لتصغوا إلينا ، نحن سكان (خينومبرا) ،
ننهبكم بالذّكريات ،
نحن الموتى ، الذين جاءتهم الحكمة متأخّرة جدّاً ،
ننهبكم بالرؤى .

بصمت مطبق ، وعلى مدى سنين وسنين
وعلى مدى سنين وسنين
تساقط ثلجُ أعمدة (خينومبرا) الآيل إلى رماد .

في كلّ مرّةٍ تستيقظون ،
نهرعُ إليكم ، مطبقين تماماً ،
وبأذرعنا المدمّاة
نرسمُ لكم ذنوبَكم .

عمودُ (خينومبرا) من الرّماد
طاف وحيداً عبر أرض (رِند) :
ووصل خطّ السّاحل في اليوم الخامس

ورأس الأطلسي في اليوم السابع .
لم يكن ثمة من أمل للنازحين
حتى في البحر المفتوح على مصراعيه
حيث نساء (ميدوسا) شوهدن
في لحظات احتضارهن ،
وحيوانات الأخطبوط البحرية شوهدت
تسبح باتجاه الأعلى من أعماق المحيط .

عمودُ (خينومبرا) من الرّماد
يطفو مثل برعم ماء ،
رمزاً للموت عبر المحيطات .

الأرواحُ الشريرةُ راحت تطفو
حوله مع ملائكةِ الماء
وجميعها كانت ترقد ميتة .

واشتبكت الأديانُ بخطوطِ الفكر
في خلجان الموت .

حجرُ الحكمة ، معصوباً بقناع العبقرية
المهيأ للذّبح ، أُطلِقَ باتجاه قلبِ مدينة (خينومبرا) ،
التي لاقت حتفَها للمرة الثالثة .
آه ، يا لتلكَ الجوهرة!

٦٥

نصبنا ستائرَ للأحلام .
وبيننا وبين ذاكرتنا عن (خينومبرا)
أتى نسيانٌ جليلٌ
مكتنزٌ بالحياة .

مكبّرةً ومعدّلةً
تدفقت حواسّنا
متحولةً إلى مغامراتٍ عميقاً في الأبعاد .

نقطةُ ألم قصوى تلاشت .
شعرنا بوضوح أن النقطةَ تتهشّمُ
فائضةً عن نفسها ،
باتجاه بركةٍ بلا اسم ،
حيث كانت إنيارا ،
وحيث كان (شيفون) يرقد ميتاً ،
لأسباب لا يعرفها أحد ،
ولم يهتم لشأنها أحد .

خفّةٌ رفعت الجميع بالسهولة ذاتها
وكانت (إساجل) من بين هؤلاء .

(أما (ليبدل) ووصيفاتها
وأتباعها ، فقد انسلوا جميعاً ،
مبدّلين هيئاتهم بفعل العقّار ،
كأنما بفعل ندى الفجرِ
في سويقات الزّهر السّاحرة .

٦٦

أعمق فأعمق كان كل منكوب
يعثرُ على ما سأسميه جنّةَ (عدن)
من الآن فصاعداً .
ولكن ما إن نفد زادنا من الأفيون
وتبعثرت رؤى الفردوس ،
بدأ أهلُ (خينومبرا) بالصراخ والعويل ،
متوعّدين بالانتقام الأبدي
أمام العار الذي لحق بمدينتهم .

٦٧

أيقظتني صرخةٌ . إنها (شبيبا) .
كانت تحدّق بي خلال بؤبؤيها الغائرين ،
اللذين كانا يفقدان بريقهما ، ويخمدان ببطء .
كانت تصرخُ : إلهي ، لا أريد أن أعيش هنا ،
حيث المتعة والراحة لم تعودا موجودتين .
إنها ذكرياتي عن (خينومبرا) ، جليةً ، وكئيبةً .

من كل حدبٍ وصوب أتى الجفافُ ،
وبلغ ذروته في مختبر الصّور ،
الذي كان يحوّلُ ، عبر المعادلات الجافة ،
كل ريحٍ تهبّ إلى هواءٍ شديد الحرارة .

كان الفصلُ فصلَ خريف .
والنازحون يسردون قصصاً
عن بحيراتٍ متجمّدة كان الناس يحاولون
إغراق أنفسهم في قيعانها .

الآن ، انتهى كل شيء .
ولم يتبقَّ أحدٌ لنضعَ اللوم عليه .
الناسُ المسؤولون؟ جميعهم ماتوا .
المتسبِّبون بالكارثة
فرّوا في الوقت المناسب .

أدواتُ القوة ،
التي كانت تديرُ كلَّ شيء
بيدٍ أمينة ،
تحوّلت إلى رمادٍ وزجاج .

وكلّ ما كان قابلاً للاحتراق
تحوّلَ إلى رماد .
الأحجار صارت زجاجاً
بالغةً عمق أربعة فراسخ .
وفي بعض المناطق هوت أعمق .
طبقات سميكة من سطح الغرانيت
بدأت تفور وتغلي .
ولم يكن بمقدور أحد النظر .
الجميع ابتلعته الدوامة
الجميع راح يدور ويدور طافياً كالرماد .

ما الذي حدث داخل البيوت؟
عملياً لاشيء .
حدث الأمر بسرعة رهيبة
كأن لا شيء حدث حقاً .
تخيّل منبّه ساعة فوق رفّ ليلي
وضعَ لقياس الوقت بالثواني
أُخِذَ على حين غرّة بصوت اهتزازه
ومن ثمّ بدأ يغلي ويتبخّر كالغاز
وكل ذلك في جزيئات صغيرة من الثانية .
والمرأة ، النائمة في سريرها فاقدة الوعي ،
استيقظت قبل ثوانٍ قليلة بفعل الهواء القارس .
احمنا من هذا العذاب ، أسمعكِ تنادين الآن .
من قلب ظلال التوبة تأتي استغاثات كئيبة
تذكّرنا بصيحات البشر الكئيبة في (خينومبرا) .

٦٨

شعرنا بشيء يشدّنا بعيداً عن مسارنا ،
وصار الأمل يحدونا
بأن النهاية بدأت تقتربُ في عمق الخلاء .

بدت الحالة لكبار السنّ مثل عملية نقل الدم
وهم يشعرون أن السفينة تهتزّ وتخرج عن مسارها .
ومن أولئك الذين أعياهم الألم
وراحوا يبحثون عن علاج التأمّل
أتت الصرخة : السفينة تهتزّ ، هذه الجميلة ،
إنها تتعرّض لهزّة قوية تبعدها عن مسارها .

الأمل غير المنظور بدا واضحاً
ولم نر أثراً للسخرية حين اجتمع رجال
العقائد والأديان في الردهات ،
مستعرضين صلبانهم ورموزهم وراياتهم ،
وبدأت الصلاة ، وإيقاظ هواجس زهر اللوتس .

كان ارتطام السفينة قوياً وهي تمخر العبابَ ،
وكان الأملُ ، الذي يواجههُ الرعبُ ،
قد رفعَ رايته من جديد .

٦٩

دخلنا ما يشبه خليجاً من ضباب
يزدادُ كثافةً مع كلّ يوم يمرّ ،
حتى بدأ في اليوم الخامس
ينقشعُ عن مقدمة السّفينة . سرعان ما بدأت
أشياء غريبة تحدث : لألأةُ قوسِ قزح ،
ومعطفٌ مدهشٌ من الغيم
يلفّ خصرَ السفينة .
رقصةُ الألوان التي لا تُضاهى :
عرضٌ خلاّبٌ ، شاسعٌ ، من الألعاب النارية
أسكرَ مملكةَ إنيارا ، وأبهرَ الأنظار .

هذا الاحتفالُ المريبُ لم يدم طويلاً :
بدأنا نواجه مقاومةً لا نعرف مصدرها ،
وإعصار من الذرّات المتوهّجة
أدخل الهلعَ إلى قلوبنا
وسيطر على عقول الجميع .

ظننا بأننا نتفسّخ ونموت .
الآلاف من البشر الذين يحتلون
الأربعة آلاف غرفة داخل السفينة
اندفعوا باتجاه الممرات ، ينهبهم الذعرُ .
أكثر من مائة مسافر من (غوند)
دُهِسوا داخل غرف الاجتماعات ،
وبضعة آلاف أصيبوا بجروح .
الجاذبية المختلّة
التي بدأت تنتشر في كل مكان ،
أطلقت أمواجَ الفوضى عبر أرواحنا ،
مع آلاف الذبذبات ، مثل رذاذ
يتساقط فوق قمم الجبال القاسية ،
جاعلةً كلّ قلبٍ ينوء ويرتجّ من الرعب ،
ولم نصادف في رحلتنا كلها ما يعادل
ذاك الهلع الرهيب
الذي ملأ الممرات والقاعات بصرخات الفزع ،
حيث كان الارتطامُ دموياً ، قاتلاً :
طاحونٌ بشرية ،
يحرّكها رعبٌ بشري ،
جُنت رحاها ، وبدأت تنشقّ على نفسها .
ومثل تمرينٍ في الدُوار ، ينفّذه عمالقةٌ خرافيون ،
حُمِلت السَفينةُ فوق سحابة فلكية من الرمل ،
سحَابة سرعان ما احترقت

وتلاشت في وهجها الباهر ،
وأتت على القضبان المعدنية المصدومة
لجسم السفينة .

ومثل قمّة تلفّها النيران ،
تنوّرها شمسٌ قريبة ،
راحت سفينتنا تدورُ حول نفسها
وسط الزئير الرعدي الذي انسلّ
إلى أعماقها .
وفجأةً توقّف كل شيء ،
مثلما كان قد بدأ .
غطست السفينة على طول خطّ مسارها
الذي حاولت التمسّك به خلال سقوطها .

ماذا يمكن أن تكون هذه الرجّة؟ أتى السؤال .
وبالرغم من كل موتانا ، هذا ما أتى أولاً .
هذا كان أكثر ثقلاً ،
في ذاك العالم الخرافي الذي يطاردُ الرعبُ
مسارَه المألوفَ الآن باتجاه (كوكبة القيثارة) .
ووسط حشود الموتى ، أعلنت القيادة العليا
ما تعتبره سبباً محتملاً وراء ما حدث :
سحابةٌ من ذرات فلكية أو من الثلج
المصنوع من مادة خاصة ، مسحوقٌ فلكي

يسبح كالذرّات- ثلجٌ أزلي
يتطاير حولنا منذ مليارات السنين
باحثاً عن جبلٍ يسقط فوقه ،
يسقطُ ويستقرّ هناك بسلام .

واغتبط الناس لهذه المكاشفة ،
ثم انحنوا ليجمعوا رفات الموتى
الذين اختارت أرواحهم مستقرّاً هانئاً ،
أرواحهم المختزلة ، الباردة كالثلج ،
استقرّت أخيراً
فوق جبل الأرواح .

* * *

لكن التغييرات كانت كثيرة
في العالم الذي أصبح عالمنا .
حجرة المرايا التي أطالت أمد
أوهامنا لسنوات أربع
ترقد الآن مهشّمةً ، مبعثرة ،
وشظاياها التي لا تُحصى غطّت أكواماً
الأرضَ التي كنا رقصنا عليها يوماً .
وبين الشظايا المقصودة مزقاً ،

كانت ترقد أكثر من امرأة جميلة
سمعتنا نرقص على وقع سحابةٍ
تراقصُ سفينتنا .
ومع حليها المتدلية على وركيها
كانت ترقد (هبه) ،
فيما (ديزي) ، التي بدت أكثر جمالاً ،
ومثلها (يال) ، كن يرقدن بلا حراك ،
بالقرب من (تشيبيبا) التي تعرضت لجروح خطيرة .
هذا ما أصابنا خلال الرحلة في عامنا الثاني عشر
منذ انطلاقنا من (دورسفل) .

٧٠

مرةً أخرنا سلكنا طريق النهار ،
متجهين صوب (غازلنوت) ، كما في السابق ،
وهو المصطلح الذي نحتناه
لتسمية كوكب صغيرٍ من مجرّتنا
بما لا يتنافى مع تسمية النجوم .
ولكن هذا لا يعني أن بمقدورنا
إقامة جسر مع (غازلنوت) أو احتواء النجم
داخل إطار تحتاج إليه الحياةُ .
كلا ، فإن (غازلنوت) يرمز ، في الوضع الراهن ،
إلى نجمٍ صغيرٍ جداً من مجموعة نجوم أربعة .
وكل نجمٍ يبلغ اتساعه خمسة عشرة سنة ضوئية .
وفي علم الإحصاء الفضائي ، اعتاد العلماء
أن يقولوا أن مساحة المنطقة الإجمالية
لما يسمى (طريق التبّانة) تبلغ ثماني مائة ألف نجمٍ صغير .
ولكن ما فائدة الأرقام هنا في شرح هذه المسألة-

هوّةٌ سحيقةٌ ابتلعت سفينةَ إنيارا .
ما فائدة الأرقام في الكشف
عن اختفاء إنيارا في سحيق الخلاء .

٧١-يدُ الفضاء:

في كل مرةٍ أنبشُ فيها ذاكرتي
أتوهّمُ أنني قادرٌ على تتبعِ أصلِ (نوبيا)
إلى (تلاكوتيللي) ،
وهي منطقة صغيرة منحوسة
تقع في الأراضي العليا من (دورايما) .
إنها بلدةٌ لم يرها أحد من قبل ،
بمستشفيات بُنيت عميقاً في الجبال .
منجمٌ قديمٌ مهجورٌ أُعطي منذ سنوات
لتشييد تلك البلدة التي-
بعد تمحيص وتنقيب وتغيير ممرات الجبال-
بُنيت على عمق ألف وخمس مائة قدم
عن سطح الوادي .
أرتحل بأفكاري كثيراً
إلى تلك البقعة الآن ،
حيث شعب (السمارتيان) ،
أحضر معه كل شيء في صناديق ،

واستوطن هناك .
يقولون إن الكلفة على النحو التالي :
-سمعتُ رقم ثلاثة ملايين ليرة سويدية
-وفي عملة (غوند) خمس مائة ألف
-وفي عملة (رند) الصوتية خمسة ملايين .
وعلى مدى أحد عشر عاماً
راحوا يستجدون الصدقات ،
وبنوا في أسفل السافلين ، طلباً للحماية ،
محطة إنذار في جبل (دورايما) .

* * *

حين يمضي وقتٌ على المرء
يعاشرُ فيه الجنّ
فإن ذاك الخير يبدو أرضاً جذّابة
تحمل ثماراً تجلب الشهرة ،
حيث متعة الأشياء البسيطة
تنكشفُ جليةً
مثل عصفورٍ يغنّي في وادي القلب .

٧٢-أغنية كاريليا

مضى الوقتُ ومرت السنون
باتجاه فضاءات مريرة ، قاسية .
تحررّت الحياةُ شيئاً فشيئاً- من الزمن-
بالنسبة لأولئك الجالسين هناك
محدقين عبر النوافذ العملاقة
بانتظار نجم يفلتُ من مداره ،
سالكاً هذهُ الوجهة ، ومضيّقاً دوماً المسافةَ .

يكبر الأطفال ويلعبون في سهوب التوندرا ،
وفوق الرخام المنهك لغرف الرقص
يخشوشنون ويقوون .
والزمن المتبدّل يجلب معه عادات متبدلة .
فرقصة (اليورغ) نُسيت من زمن بعيد ،
و (ديزي) المهووسة بالرقص
نامت إلى الأبد داخل محارتها
في سرداب لا يُوارى فيه
سوى الماهرين في الرقص .

أما أنا فجلستُ صامتاً ، وحيداً
أفكّر بالفتاة الرائعة (كاريليا) ،
حيث كان لي حياتي يوماً ،
حيث أمضيتُ عمراً ،
ومكثتُ لأكثر من ثلاثين شتاءً
وتسع وعشرين صيفاً ،
إلى أن أقدمتُ ثانيةً على خطرٍ آخر
عصفَ ببلدان أخرى ، وحظوظٍ أخرى ،
خلال ترحالي المنحوس .

يأتي التذكّر في شكل ومضات .
ولا شيء يحجزُهُ في هذه الفضاءات ،
وكلّ شعاع من كلّ عصرٍ يتقاطعُ هنا ،
وألتقطُ من كلّ الأمم شذراتٍ
عبر رحلاتي المتنقّلة .

أجمل من كل الرؤى الجميلة
تأتي صورة (كاريليا) ،
مثل بحيرة تتلألأ عبر الأغصان ،
مثل بحيرة مضيئة في الصيف ،
في فصل حزيران الزاهي ،
وما إن تهبطُ المساءات ويحلّ الليل ،

يمر العصفور الغردُ ، مطلقاً نداءاته الحنونة ،
متوسلاً لها أن ترتدي معطفها الضبابي ،
وترتفع فوق مياه حزيران المسائية ،
وتهرع باتجاه الأبخرة المرتفعة ، وتلتقي الطيرَ
داخل البراعم المتفتّحة في حفيفِ (كاريليا) .

كيف يتأتّى للمرء ، يا للحسرة ،
أن يأخذ مشورةً حكيمةً ، من عصورٍ خَلَت ،
لم يعد لها نفع الآن ،
والتي أضرم الوقتُ النارَ في حقولها .

اجلس هنا ، في قمرةِ السفينة المسافرة .
نتذكّر أننا كنا على قيد الحياة ذات يوم
في حياة أخرى ، نتلقّى الحكمة ،
من رغيف خبز بسيطة .
اجلس هنا . أين هي أمي؟
اجلس هنا . أين هي غاليتي؟
في عالمٍ أفضل من هذا العالم .

هل كانت السكين التي استخدمتها
السبب الذي جعلني أخسرُ غاليتي؟

غرزتها في صدرِ حارسي
حين مال بجذعه داخل حمّام الماء
وقبض على نهديّ بأصابعه ، ...
ولكن أين ، بحق السماء؟ أوه ، أجل ،
إني أتذكّر الآن .
كان ثمة مروج ، وكانت ثمة غابة ،
تحيط بالفتاة (كاريليا) المسكونة
بالأغاني الريفية القديمة .

أجلسُ هنا بالقرب من هؤلاء الآخرين ،
أستفيض بالحديث عن عوالمهم .
كيف عاشوا وازدهروا هنا ،
وكيف عاشوا ببذخ
فوق كوكبهم العظيمّ .

ولكن تسعون قرناً مرت ،
وذات مساءٍ جلستُ صامتاً
فوق أرض محروثة مع حبيبتي ،
قبل أن يحدث كل هذا ،
وقاضي القضاة أرسلني بعيداً
متهماً إياي بالعصيان ،
بعيداً عن غابات (كاريليا) .

جميلٌ أننا ننسى الأشياءَ أحياناً .
وجميلٌ أن ذاكرتنا لا تسعفنا
إلاّ للحظات وجيزة .

وجميلٌ أننا لا ندركُ دوماً
فحوى ترحالنا المنحوس .

الأفضلُ أن ننظر حيث لا نقول شيئاً .
يمكن أن يكون للآلهة حرس
يجلسون هنا ويسترقون السمع .
ما الذي نعرفه؟

إذا كنتُ هادئاً ، إذا كنتُ أعاني ،
إذا كنتُ أشعر الندم بصمت ،
عندها ، ربما ، سوف أرى
نهاية ذكرياتي ،
وأنهي تحولاتي ،
وكمواطن يستحقّ العيشَ
في الكوكب العظيم ،
أستقرّ عميقاً كعصفور
يحتمي بغابات (كاريلّيا) .

٧٣-ليبدلا (مرثية سرية)

هل يفتّش كلبي بأنفه
حيث تنمو زهوركِ ، ليبدلا؟
هل تتظاهر قطتي الصغيرة ، النحيلة ،
بالنوم ، ليبدلا السعيدة؟

هل تهمسُ أذني بدعواتها الناعمة ،
ليبدلا؟
هل أملكُ بيتاً في جدار رجلٍ آخر ،
ليبدلا المصغية؟

ليبي . . دي . . لا
أعطني مزهرية البرزخ
ودعي (ستيلا) تشعلُ لهبَ "ألفا" .
داخل متاهة (سينتوري ألفا)
سوف نذرف دموعاً ونبكي ،
أوه ، أنتِ أيتها العارية ،

ارمي حزنكِ عنكِ
في غابة القمر المثقلة بالنايات
التي تتسع لاثنين فقط .

ليبدلا ،
دعينا نتوجه إلى شعاع (نجمة الكلب) ،
دعيها تغر ثانيةً ، عزيزتي ،
دعي مزهريتَكِ -البرزخ ، تفض .
تنسل الأرملةُ السعيدةُ العجوز خلسةً
وتجعل الآخرين نهباً للتفكير .
أوه ، أنتِ أيتها العارية ،
ارمي حزنكِ عنكِ ،
في غابة القمر المثقلة بالنايات
التي تتسع لاثنين فقط .

ليبدلا ،
عارية في مخبئك ،
ارتفعي صوب النصب التذكاري ،
مغسولةً بضياء القمر .
في شعاع (سينتوري ألفا)
سوف نتقلب فوق لظى الدمع .

أوه ، أيتها العارية ،
ارمي الحزنَ عنكِ ،
في غابة القمر المثقلة بالنايات .

٧٤

في فضاءات جلية ، ناصعة ، يحدّق الرعبُ ،
مفكراً باللاشيء ، يرى الصورة كاملةً .
بلا مبرر ، فضاء الموت زجاجي واضح ،
بلا مبرر ، الخواءُ يدّعم شفافيةَ العبث .
بلا مبرر ، نجمة الرعب لا تكفّ عن الرّمش .
صديقي ، أنت تعرف الكثير ،
لأنك لم تبذل أي جهدٍ في التفكير .

خلدتَ للنوم ، وفي الصفاء الشاسع
للبحار الكونية مُحيت أحلامُ يقظتكَ
ومثل شمسٍ ، راح يشعّ ضوءُ الرعب .

٧٥

جائزة من عشرة ملايين (غوند)
-مبلغٌ يجعلُ المنافسةَ جريئة-
لكل من يدير وجهةَ سفينتنا
ويوجّه مقدمتها الأسطوانية
مباشرة باتجاه (دوريسولد) .

ولكن السنوات مرت الآن ، والمنافسة
تخصّ ربّة الرأفة في مملكة روح الفضاء .

من يقدر على النفاذ إلى أسرار الروح؟
من سيعطي الحورية عصاها السحرية؟
هذه هي صرختنا في محيطات الما-وراء .

٧٦

حساباتي فوق ركبتي ، أجلسُ
صامتاً ، فيما يواصل مؤرّخُ الفضاء محاضرته ،
عن الرواد الأوائل في هذه المناطق البحرية ،
والتي كانت يوماً ، قبل أن تُقهَر ، مقبرةً للفيالق .

في العهود القديمة ،
كان التحليقُ أكثر وعورًة (شاهد إيكاروس .)
أجل ، كان ثمة أناس يعتقدون حقاً بأنه يمكن
أن يتم إطلاقنا عبر مجسمات صواريخ
ونظل قادرين على قطع حقول متعرجة
وهضاب منحنية .
حين لم تسفر تلك الفكرة المحلية عن شيء
-وكلفت الأمة كثيراً من الضحايا(شاهد ثاناتوس)-
حلت المرحلة رقم اثنين ،
أو ما يسمّى (عصر السلالم السماوية) ،
حيث عبر سلسلة من محرّضات العلوّ

كانت سفنهم تحلق عالياً خلف تلك الحقول ،
-وهذه طريقة جيدة بحد ذاتها-
لكنها ليست خالية من المخاطر .
ومنحنى الحظوظ العاثرة كما نلحظه هنا
يتحدّث عن نفسه وكيف كانت عليه الحالُ
حين كان الفضاءُ لا يزال مساحةً عذراء صافية .

وبالمقارنة مع المنحنى في الوقت الراهن
ومع أرقامنا وحساباتها الكلية ،
كان المنحنى في العهود السالفة أقلّ صلاحيةً .
في الواقع ، كنا محقّين في القول إنه كان رهيباً .

٧٧

ننكمشُ فزعاً لدى رؤيتنا ، عبر التلسكوب ،
شمساً سوداء كالفحم ، مطفأةً بلا اسم ،
شمساً متشحةً بالسّواد في مقبرة الفلك الشاسع ،
وكان كلٌ من الجدَثِ المسودّ والجنازة الشمسية
يتناوبان ، متلألئين بعواصف نارية ،
فوق قمم الزمن حيناً ،
وحيناً عبر اللهب الهاوي ،
بين فكّي الظلمة
حتى تبتلعهما كلياً ، في الوقت المناسب ،
وبفعل قانون التفسّخ ، الصورُ الملتقطة ،
التي لم تترك أثراً سوى حروق وكدمات
تمهرُ شاهدةَ القبر في الوديان القاحلة للظلام .
ومن بين آلاف الهضاب الملونة بالسواد
التي لا يراها أحدٌ ، انتصبَ ليلٌ لا نهائيٌ
في مقابر الفضاء المترامية .

إنها لا تعكسُ ضوءاً ،
ومثل كسوف مجموعة من النجوم ،
والتي لم يمر شهرٌ على رؤيتها تشعّ
تماماً حيث تنتصبُ الآن شمسُ الظلام
حادة الحواف مثل قطعة نقدية سوداء كالفحم .
الآن ، برزانة مظلمة تزرع صورتها المدوّرة
فوق سديم من الغاز المضيء .
إنه جبل عملاق ، مظلم ودائري الشكل ،
حيث عميقاً في كهوفه المخيفة
مات جنّي المصباح قبل زمن طويل
داخل أحضان العتمة ،
ملطخاً بحمم فاحمة سوداء ،
متجمداً ، بلا اسم ، داخل قبر الضوء ،
ومن دون أثر .

٧٨

رئيسُ مهندسينا ،
وهو رجل من أرض (غوند) العليا ،
وخبير لامع بتقنيات الأنابيب ،
هجر هذه الحياة
في الخامس عشر من نوفمبر ، يوم الأربعاء .

وعرفاناً لسنوات خدمته
وإسهاماته في علم السفن
كانت وصيته أن يُدفَن داخل
كبسول إنقاذ
ويُطلق باتجاه كوكب (ريجيل) .

حشد كبير رافقه إلى غرفة الخروج
حيث كبسول الإنقاذ فوق قاعدته
والناس ينشدون أغاني الوداع
"الصدرُ واسعٌ والميناءُ بعيدٌ ."

ثم انسحبَ الجميع
وأغلِقَت غرفةُ الخروج .

شخصٌ واحد فقط
سمع الدوي داخل الوحدات .
كان كبسول الموت مبرمجٌ للذهاب
إلى قبرٍ من السنوات الضوئية .

٧٩

أتينا من الأرض ، من أرض (دوريس) ،
جوهرة نظامنا الشمسي ،
والمدار الوحيد حيث الحياة تفوز
ببلاد المنّ والسلوى .
صف الآفاق التي وجدناها هناك ،
الأيام التي تنجبها صباحات الفجر .
صف الكائن الجميل والمرهف
الذي خاط الأكفان لذريته
إلى أن أتى الله والشيطان ، يداً بيد ،
عبر الأرض المجنونة والمسمومة
وطارا فوق الهضبة ومن ثم انحدرا
بعيداً عن الإنسان :
ملكٌ بتاجٍ من الرماد .

٨٠

وسط الشمس اللاهبة
ثمة بؤبؤ ، أو جوهر ، يجعلها ،
عبر عصفه الممتع
نجمةً للحب .
وكلما ألقت نظرةً باتجاه الأرض
تنهضُ المروج وتنبلجُ الزهور
يوماً وراء يوم ، منعشةً البذور
في أيام الصيف السعيدة .
من أسفل التربة ترفعُ الزهورُ
راياتها التي ترتعشُ وتورق .
الفراشات ترقص هناك
بأجنحتها الصفراء حول براعم الشوك .
النحل يطنّ فوق العشب ،
حتى إن ظلال الوريقات يتقاطعُ كالصلبان .
عليلةً تهبّ ريحُ الصيف وتمرحُ
في مسيلات عشبية مرتجفة .

الغبطةُ تسرحُ- هبةُ لحظة من ريحٍ
في طقس جميل من حظٍّ سعيدٍ .
بعيداً عن كلّ حماقة أو مصيبة
تشعّ ، عبر غابات الصيف ،
نجمةُ الحبّ الصيفية ،
زهرةُ الفصولِ في منتصف الصيف .
هل من شيء آخر يمنحنا أسباباً أقوى
لنكون سعيدين وصالحين؟

٨١

العتمةُ في عقولنا وصلت ذروتها
بعد تسع عشرة سنة في الفضاء .
جلستُ مع قلمي منهمكاً بإحصاء
آثار الإشعاع من كوكبة (القيثارة) ،
محاولاً اقتراح أمرٍ هنا وأمرٍ هناك .

هكذا جلسنا في الربيع العشرين
ندرسُ توهّجَ نجمِ (القيثارة)
و(إساجل) راحت تقرأ
عبر تردّدات أشعة (بيتا) و(غاما) .

وريحٌ ساخرة للروح راحت
تتناوبُ مع هبّاتٍ باردةٍ للخوف
وترافقُ تنهدات (إساجلَ)
في مدٍّ وجزرِ دموعِها .

وجميع عذابات القلب الرومانسية
التي ذهبت فيما وراء الدموع المنهمرة
اعتُبرت الآن عناصر حيوية رزينة
في ظلام ينأى بنفسه عن المتعة .

محتضناً بطلتي قريباً من صدري ،
كدتُ أتذوّقُ دموعَها الحارّة المنسكبة .
وكانت تمثل دفء العيش
الذي يرافقني فوق متن السفينة .
وبعيداً باتجاه كوكبة القيثارة الساطعة
اتجهت السفينة بكل كدماتها وجروحها ،
تتركها الشهبُ الساقطةُ التي قابلناها
عبر فضاء مطرّز بالنجوم .

لم تكن (إساجل) ترغبُ في أي غناءٍ .
لكنني كنتُ مصراً على التوجّه بلسانيَ المتحجّر
إلى الزهور والأعشاب .

أغنيةٌ من عِلم ساكن
أنشدتهُا لعروسَّي الباكية ،
غنيتُ عن شرف الإنسان
موضوعاً على المحكّ
وفي اختبارٍ رهيب .

وأنهت (إساجل) نحيبَها
-ثمة أمورٌ أخرى أكثر سوءاً .
في السنة العشرين داهمنا هذا المصابُ
في رحلةٍ لم تفز إلاّ بلعنات قلوبنا .

٨٢

حدثٌ يمكن أن تنعته بالخارجي
انفتح أمامنا ، وكان يلائمُ كثيراً
الفضاءَ في ذاك النهار .
طلبت منا القيادة العليا أن نتأنّق
ونرتدي أجمل ثيابنا
ونتوَجه إلى الدرب الفلكية .

استخدمنا مائة دَرَج .
وتمّ على الفور إخلاءً أربعة آلاف غرفة ،
ومائتين وثلاثين قاعة اجتماع .

ووسط البناء المركزي العملاق
الذي يتسع لعشرة آلاف شخص
(تسمى قاعة السنة الضوئية)
التقينا ، أنا وأنتِ .

عندئذ فقط لاحظنا
كم كانت السنون قاسية
على البشر جميعاً ، الغني والفقير ،
حين كنا تحت أضواء الشمعدانات
نتوسّط بحراً من البشر
الذين يُدعَون جميعهم : "أنتِ وأنا ."

بدا الأمرُ وكأنّ كل الأرواح
قد خرجت من قلب الأرض
واجتمعت هنا في الأعالي .
وتسارعت الواحدة تلو الأخرى
أغاني جوقة الملائكة ،
وخطبُ البحّارة .

رئيسُ البحّارة ألقى محاضرةً
حول مغزى اللّحظة الراهنة ،
في هذه العطلة العظيمة .
كم كان الفضاءُ الخارجي شاسعاً ،
وكم كان عصياً على الفهم لغزهُ ،
وكم كان صغيراً الدورُ الذي ألعبه .

وسمعتَ الجوقةَ تغنّي
في هاويةِ (غرفة السنة الضوئية)

وجمهرة البشر تحدق مشدوهةً
في سحيق المتاهة اللامتناهية .

عشرات الآلاف كانوا يبكون
والمئات قالت :
هذا حقاً هو طريقُ قدرِنا .

السفينة إنيارا
استمرّت في رحلتها
وأكملت العشرين عاماً اليوم .

العديد وقفوا صامتين .
فجأةً نطق أحدهم قائلاً
السنةُ الضوئيةُ قبرٌ .

هذه العشرون سنة من عمر الرحلة
هي ست عشرة ساعة من طريق الضوء
فوق بحر قبر السنة الضوئية .
ولم يكن أحدٌ منا ليضحكَ البتة .
بالقرب منا كان الجميعُ ينتحبُ .
السنةُ الضوئية قبرٌ .

رئيس البحّارة لوّح بعصاه
روحنا تصعد الأدراج المائة ،
مبعثرين تجمهرنا .
كل منا كان يمشي بصمت .
السنةُ الضوئية قبرٌ .

٨٣-أغنيةُ الحتّ والتعرية

كتائب الذرّات التي غمرت أبراج نينوى
تبعثرت أخيراً وفرّقت مقاعد العظماء .
التفسّخُ يظهر في كلّ حجرٍ
على شكل تصدّعات وشقوقٍ .
إلى الأمام تقدمت تماثيل الأسود المتشققة
وخلفها الكهنة ذوي المناصب الرفيعة .

آه ، أيها الحجر المنكوب ، أوقفهم ، لا تدعهم يختفون .
انظر كيف أن الزمن يمتطي صهوة الأسد المتناسقة
مثل الرجولة تمتطي الأنثى في آشور القديمة ،
مثل برج (هان) متداعياً تحت وابل من المطر .

باتجاه آثام التعرية التي لا تنتهي ، تهادت الفصولُ
ومن أجل شهوة المقابر هجم التفسّخُ على الوردة .
بألسنتها الحسودة ، راحت المروج العشبيةُ تتوالى .
طحالبُ الكهوف غيّرت أنفَ الذئبِ الصخري .

وحيث الصخور تتعرّى ، يغرز الناسُ أسنانهم بالصواب ،
كل منافقٍ يعرفُ جيداً الرائحةَ النتنةَ للتعفّن .
أشياء البصيرة الدفينة خرجت إلى الضوء
مثل أعماق خاوية تحترقُ
في حممٍ من خليجِ الحطامِ العظيم .

اصغِ لرميم العظام المطحونة . هنا نايٌ مكسورٌ
يعزفُ أغاني أبي الهول ، المأكول بالجذام ،
في كثبان الرمل ، يسلّي الأمم التي انحدرت ،
مثل أحجارٍ مشروخةٍ ، تحتّها أسنانُ السنين .

٨٤

كبيرُ الفلكيين يُرينا صورةَ
المجرّةِ المرمية في البعيد .
كثيرون انحنوا على ركبهم
وبدؤوا يصلّون : يا الله ، هانحن هنا!
هم أعضاءٌ في جماعة دينية تعبد المجرات .
وحين رأيتهم يصلون تذكّرتُ
كيف أن الأخت (نابيا) وصفت لي مرةً
الأرض العملاقة في (دورايما)
حيث المجرّة الجارةُ في أندروميدا
تظهر في ليالي الصحو كبيرةً
-ويمكن رؤيتها من سطوح المنازل في مدن ثمانٍ-
متلألئةً كأنما تعكسها آلاف المرايا العملاقة
مثل سمكة ذهبية في عيون سكان (دورايما) .

٨٥

تتأرجحُ المجرّةُ يميناً وشمالاً
مثل عجلة من الدخان المتصاعد ،
والدخانُ مصنوعٌ من النجوم .
إنه دخان شمسي .
ولعدم وجودِ مصطلح أفضل
أسميناه دخاناً شمسياً ، كما ترون .
لا أشعرُ أن اللغات ترتقي إلى مستوى
تلك الرؤيا وما تعنيه .
إنّ أغنى اللغات التي نعرف ،
وهي (الخينومبرية) ،
تتألف من ثلاثة ملايين كلمة ،
لكنّ المجرة التي تحدّق بها الآن
تتألف من تسعين ملياراً من الشموس .
هل سبق لعقل أن امتلك ناصية كل الكلمات
في اللغة الخينومبرية؟

لا يوجد أحدٌ البتة .
الآن أنت ترى .
وأنتَ لا ترى .

٨٦-أغنية من أرض (غوند)

إلهُ الزهورِ يمعنُ في الاقتراب
لأنّ أيام الزهور معدودة .
وإلهةُ اللبلاب هنا .
يالها من متعة حين تنطبقُ عينُ الإنسان .

ألا ترى ، حورياتٌ حيرى يعبرن ،
يحملن توابيت داخل خيامهنّ .
إلهُ البنفسج يشتهي التمويهَ
وأيامُ البنفسجِ تتهشّمُ .

ننحني داخل معابد الآلهة ،
متحولين إلى أشعة وسماد ومدقات زهر ،
والآلهة سرعان ما تلوّنُ الزهورَ
بفضلِ تعفّن أجسادنا .

وحيث يتوقف الكثير منا عن الحياة
تتوقف الآلهة عن النواح .
حياتنا ، كالثلج ، تتحوّل إلى ضباب
حين تبدأ آلهة الصيف بالاخضرار .

٨٧

مرّ الوقتُ وحلت تبدلات كثيرة
مثل بقع مهترئة في مقاعد منجّدة .
العقل الغافل والروح المزيفة
يظلان عاجزين ، محجّمين ، بلا فاعلية ،
داخل الثراء الكوني الذي عايش أياماً أفضل ،
لكنها تدهورت عبر طرائق العالم المميتة .

السأمُ ، ذاك القيد حول رغد الحياة ،
اكتمل منذ أمد طويل ، وتجاوزناه ،
حيث الأرواح تبحث من جديد عن علاج
في الجروح والمعاناة التي يرميها زماننا في وجهنا .
رقصات عصرية وكلمات عصرية تطفو على السطح ،
سريعاً تمرّ ، كلٌ مدعاة للاحتقار ،
فوق التيار المسموم للزمن الذي أشعلَ
مياهه العكرة ، الجارية باتجاه الموت المحتم .

العقلُ العاطلُ يصبحُ عبئاً على نفسه ،
والعقول المنيرة ، على الرف ، غير مقروءة ،
تحمل وزر الكسالى ، ضخام الجسم ،
ولا أحد يعتقد إمكانية الوصول إليهم .

أكثر العلامات غرابةً يمكن رؤيتها في الفضاء ،
ولكن طالما أنها لا تناسبُ البرنامج ، في عالمنا اليوم ،
سرعان ما ينساه الناس .

ولكي نعطي مثالاً واحداً ، اقتربنا
من شمس مجهولة ، جارة نصف خامدة
لتلك التي كانت تشعّ جميلة في (دورسيدل) .
اقتربت مني (إساجل) وقالت :
هل يمكننا أن نفعل ذلك ، عزيزي؟ نعم أم لا؟
أجبتُ بأن الوقت مناسب جداً بالتأكيد
غير أن الفضاء لا يزال لعبةً مفتوحةً بلا نهاية .
ومن الأفضل أن نحتفظ بالفراشة لبعض المسافة
من اللحظة التي تبعدنا عن اللهب الذي يمنح نفسه
كمذوّبٍ لأجسادنا .

وتركت (إساجل) كل شيء عند تلك النقطة ،
لكن عينيها أبرقتا بالغضب ، والذي بدا

في تلك اللحظة مقدّساً .
خلف ظهور كتيبتنا المخدّرة ، المصعوقة ،
موفرةً على إنيارا ذاك الملاذ الأخير .

٨٨

عقلُ (إساجل) الوضاء أصابه العطب :
شيطانٌ محمومٌ بزغَ في عينيها .
وأشار البؤبؤ إلى ينابيع روحها .
لقد سمعت استغاثات وأصداء من سماوات بعيدة .

حدثتني عن صوتٍ باركها باسمٍ
لم تسمع به من قبل ،
وراح صداه ينوحُ ثمّ ينوحُ
في غرف روح الفضاء منذ الوهلة الأولى .

كان يأتي من قبر الروح ،
حيث الجميع نيام
وهي تسمعُ الصوتَ يزحفُ ليلاً
فوق الحجارة التي ترسمُ القبرَ-
هناك يجلس رسولٌ من المحكمة الأزلية .

أصدّق ، لأنني أعرفُ حالتَها ،
وكيف أن شظيةً أصابت روحَها ،
نثرةً اصطدمنا بها في الفضاء
حين اصطدمنا بجرم (ليونيد) .

والآن ، ليس الأمر مجرد قحط كوني
وجدب نفسي فارغ نبحر فيه ،
ولكنْ ثمة أسرار كثيرة يخفيها القدر
تتركُ وشمَها عميقاً وقاسياً في نفوسنا .

غارقةً بالتفكير ، تفلتُ منها ملاحظة
بأنها تفكّر كثيراً بالموت
الذي ينتظرُ على متن إنيارا في الظلام
ويحصي أقدار الحياة المتعاقبة .

ظننتُ الأمر مزاحاً للوهلة الأولى ،
ومجرد عكر في المزاجِ
لا ينبئ بخلاص لملاّحي السفينة .
ولكن حين أمعنتُ النظرَ بنواياها
حاولت أن أحرفَ روحها باتجاه أفكار أخرى .

* * *

مكوثٌ من أرواحنا ، وسيادةٌ من الفكر الصافي ،
كانت (إساجل) تتهيأ لمملكة المجد ،
عارفةً في سرها أن براري الفضاء الشاسعة
تملكُ وسيلةً لتسجيل القصة .

وحيث لا يراها أحدٌ ، تتسلّل خفيةً
إلى حيث توجد قوانين أرقام (ألفا) :
لا بد من فتح مخزونها اللامتناهي
حين توافقُ المصادفة ، الحاكم الجديد للعالم .

٨٩

حين يصل من تحب إلى باب الموت
يمتدُّ الفضاءُ أكثر قسوةً وعنفاً .
وبتنا أكثر فأكثرَ رازحين تحت الكارثة ،
مدمَّرين ، لا تقدر أرواحنا على التحليق ،
والإفلات من براثن الفضاء الشيطاني .

من صورة الأرشيف أطّلعُ على لمحات
من سخاء روح الفضاء ونبلها .
لكن قاعة الروح الآن كهف مغلق
تتواتر فيه أشعة من مناظر التقطتها الروح
مثل برقٍ يضربُ إنيارا ،
مثل كوكبة فرسانٍ ،
مثل شمسٍ حمراءَ تغطسُ في الأفق .

٩٠

مع (شيفون) هبطتُ من عليائي ذات مرة
مطارداً بأتباعه الحمقى ، ونزلتُ
إلى أسفل غرفة في القبو ،
وهي زنزانة مخصّصة لمرتكبي أعمال العنف .

ظللتُ أردّدُ : لا بدّ أن يأتي يومٌ
يطلق فيه (شيفون) ، وإن ضدّ إرادته ،
سراحَ كلّ من يعرف أسرارَ الفضاء .
وحين يأتي ذاك اليوم ، سأستعيد ثقتي السابقة .

ولكن ، كأنّما في استجابة لخواطري ،
رجّةٌ قويةٌ أصابت جسمَ السفينة .
بدت وكأنها تحيات أرسلتها (إساجل)
من تلك المملكة المكفّنة حيث ترقد .

وبعد توقّف مفاجئ تلك الليلة
اقتربت (إساجل) منيّ في الحلم

حيث ضوءٌ روحاني راح ينيرُ قلبي
بأشعّةٍ لا يمكن وصفها .

ومع الدربة التي اكتسبتُها في قراء ة
الإشارات ، وفحص شيفراتها لما يمكن
أن يكون ذا فائدة لأفكار جديدة
تصلحُ لطريقة روح الفضاء ولغتها ،
أستطيع الآن أن أحدّد ، بشيءٍ من الرّعب ،
هوية عزيزتي ، (إساجل) ، ولماذا ظلت واقفة
تصغي بأمانة لأسئلتي ،
وتعطيني ، حين تدعو الحاجة ، جواباً شافياً .

وكان جلياً بالنسبة إلي أنّ (إساجل)
هي عروس أفكاري الرائعة ، الزاهية ،
في عالم الفضاء الكوني فيما وراء ربّ الحياة ،
وأنها جوهرة الفضاء وذاتها الجوانية ،
بل هي روحها .

وظلت مكابح إنيارا الهوائية
تصرّ وتهتزّ مع قلق (إساجل)
مثلما فعل (شيفون) . وأنا ، الذي تحت أمرته
وضد إرادته معاً ، عدتُ أدراجي حرّاً .

وبلغة الإنسان العادي (إرث دورياني)
فإن هذه الرجّة كانت تعني الجاذبية
ذات الكثافة الذهبية ، وأنّ السفينة
قد بدأت تخسرُ توازنها .
وحيث أطلق سراحي لأحدّد موضع الخلل ،
أعادوني إلى مملكة روح الفضاء .

٩١

كنا حقاً في الجحيم . بدا الأمرُ مثل قصّة خرافية
مكتوبة بالذّعر والخوف في عيوننا .
غير أن الإجماع سرعان ما تشكّل
وتصاعد القلق إلى أعلى درجاته .
خطأٌ جسيمٌ في مرصد الجاذبية
ولّدَ شعوراً بالإحباط ووهماً قوياً
بأننا سوف نستمرّ في السقوط ،
عبر الفضاء ، كإنبوب أملس
بلا حوافّ مدورة أو تاج مقعر ،
مثل بئرٍ مقلوبٍ رأساً على عقب .

خلايا الرقابة أسعفتنا قليلاً
وبدا الناس سعداء بعض الشيء
حين حرّكتُ الدفّةَ الخامسةَ (تاد)
رافعاً حملَ الخوف لمدة ثلاث ساعات ،
ومخففاً الوطأة عن الصدور والعقول .

كانت أجمل نجمةٍ بين النجوم تلك الليلة .
أين أنتِ يا (إساجِل)؟ الآن يحلّ المجدُ ،
يحلّ نصرٌ خفيٌ لبرج المراقبة .

٩٢

كل النار التي احترقت في داخلنا
سرقت ضوءها من أشعّة روح الفضاء .

ولن نرى ثانيةً ما كنا قد رأيناه
حين وقعنا تحت تأثر بهائها .

كان من الصعب أن نستمرّ في تصديق
اليقين بأن الزمنَ افترسَ الجوهرَ
فيما نحن ندور في الفراغ صيداً سهلاً .

وقف المتضرعون في قاعة الروح
يرددون بلا انقطاع مراثيهم الحزينة .
أفواهٌ متورّمة رضعت الدمَ من آلهتها .

التضحية البشرية باتت مقبولة
رغم أن العادة نسفت قدسيتها

فالمواثيق تبرمُ ثم سرعان ما تُهمَلُ
كأنها لم تكن .

وسرعان ما فقدت الطقوس نظامها
في حلقاتنا ، وفقدت القوة زخمها
في فعل التضحية ، وفتك الشكّ بها
حتى باتت ضرباً من العبث .

الناس الذين تلقّوا تدريباً على صور الفضاء
وعايشوا الأيام الدموية في (غوند)
وجدوا المذابح هنا أقل هولاً
يتذكّرون (خينومبرا) تتآكلُ في اللهب .

والذكريات من عهود روح الفضاء
فعلت فعلها أيضاً . كانوا يتظاهرون
بأداء الصلوات التي تحولت إلى محاكاة واهية
لطقوس كانوا قد مارسوها يوماً بعقل صافٍ .

لكهنةِ العقائد الذين تجمّدت أرواحهم في البرد
بدا جريان دم الأضاحي بارداً .
ومما تبقّى من روح الفضاء التي أحبّت الصدقَ
كانوا يستدلّون على عيوبهم التي لا تُحصى .

رفضوا شعائرهم وفضّلوا عليها
الطقوسَ التي صمّمها (شيفون) .
أية ضربة قاصمة لأولئك الذين يعيثون فساداً
ويتآمرون على الجنس البشري .

٩٣

قلة قليلة رافضة يمكن العثور عليها
ما إن ضرب (شيفون) ضربته الموجعة :
فوق ساحة الوغى والإبادة
كل متمرّد على حدة لقي حتفَه
متجرّعاً عذاباً لا اسم له .

منذ ذلك اليوم لم يتجرأ أحدٌ على زيارة الغرف
حيث ترقد روح الفضاء ، وحيث الطائفة ماتت ،
حيث الأمل بدا واهياً أمام تلك المصائب ،
حتى إن (شيفون) نفسه استسلم للهلع .

وبأحرف مضيئة فوق شاشته قدّمَ طرقاً
يمكنها أن تخفّف من ثقل أيامنا الأخيرة .
أعطى أتباعه الحمقى لباساً من سومطرة
وحثّهم على التلطّف بأقدارنا المحتومة .

وبسلوك جديد ، تستغربُ سردَه ،
لعبَ وتفنّنَ بالمراهم ، وكان مريحاً ،
بل إنه راح يشدّ من أزر المرضى
ويدفئ أجسادَ المتجمّدين .

٩٤-شهادة وفاة

الكارهُ ، ملتهمُ ذاته ، وسيئُ النية
الغاضبُ ، ذو الفمِ المزبدِ ،
المتجرّعُ حقدهَ ،
جلس للحظة في قاعة روح الفضاء .
كان قد اقتلع أمّةً بكاملها في (يغول) .
الآن ، ينصّبُ نفسَه رئيساً علينا في (دوريسدل) .

وبعدما التهمَ ذاته بشكل جيد
تاركاً البقايا التي لم تكن قادرة
على التهام نفسها ،
توارى عن الأنظار .
الأرض التي كان يجلس فوقها فرحت .
وكان اسمه (شيفون) من (خازكال) .

٩٥

لم أعد أضع النبرةَ الأخيرة للأشياء
في هذا الصّدع بين الظاهر والباطن .
لا أحد أتى مطالباً بالوهم .
جميعنا رأى ما هو كامن وراء الأشياء .

كأنما داخل قبر عملاق من الكريستال
كانوا جميعاً ، أو تقريباً جميعاً ،
يدركون إلى أين هم يسرعون ،
كل الأشياء كانت نوافذ لقاعات الرعب
حيث كلمات الاطمئنان لم تجد أذناً صاغية .
وماعدا نجوماً تبعد ملايين الأميال ،
لا أحد ، ولا شيء ، كان يشاهد قبرنا يسرعُ
في الفضاء مع النسل المميز لبلاد (دورسفل) .
رنينُ جرسٍ صباحي من الزّجاج
يردّد الخوفَ المتأصّل في أرواح تعلو رعشاتها
في شكل نوبات ترنّ داخل جدرانٍ شفّافة .

اجتمعنا جميعاً في قاعة روح الفضاء
وشعرتُ بأنني رُبطتُ إلى وتدٍ مع الآخرين ،
وأيقظ الخوف ذكرياتنا عن سهول (دوريس) .
رحتُ أشاركُ الباقينَ آلامهم الراهنة .

٩٦

لم يعد بمقدور القيادة العليا إخفاء
التقدم السريع للنهاية المحتومة ،
مع ذلك حاولت أن تكفّن كل حقيقة بدرع
من الصيغ العلمية من قانون المرحلة الخامسة .

أخرجوني من حجرة الكمبيوتر
ومن الغرفة حيث يناقشون المعضلة .
ولكن كل من يستطيع قراءة السّاعة
كان يمكنه أن يتنبأ لماذا فات الأوان .

ذهبتُ إلى قبر روح الفضاء وهناك
أديتُ صلاةً ، لا أدري إلى أي إله .
في يأسي ، توسّلتُ داخل تلك الحجرة الباردة
معجزةً ترسُلها تلك الدارةُ الميتة .

ورغم أنني لم ألمح أية إشارة خارجية
سمعتُ تلكم الدارة تنطق في صمتها
سراً عميقاً وفخماً ،كبّرته أضواءُ قبرِ الرّوح ،
كان على وشك أن يسيل .

٩٧

في بداية عامنا الرابع والعشرين
انكسرَ الفكرُ وماتت الأخيولةُ .
كنا محاصرين بالأحجيات الأزلية
عن مجرات مطرّزة بالنجوم لا نهاية لها .
كل حلم من أحلامنا استسلم واعترف
بمنزلته الوضيعة في عالم (لابيول غازلنوت) .

حلّ الظلامُ ، محتلاً أرواحَ الناس :
راحوا يدورون عبثاً في القاعات ،
حيث الواقع منسوفاً من جذوره ،
يسألون بعضهم بعضاً في الطريق إلى بيوتهم ،
عن أشياء بعيدة يعرفُها القلب .
تجمهروا حول المصابيح كالبرغش الذي
يكثرُ في الخريف في أرض (دوريس) البعيدة .

٩٨

وبوصفي ساحراً سابقاً في قيادة الروح
بدأتُ أستحضرُ مدّمرَ البرودة
وأصلي للربات الواقفات بالقرب مني .
أصلّي للرؤى داعياً أن تعودَ أدراجها .

أصلّي في هذه الغرفة بأن تنهض (إساجل)
من رقادها في مخدعها القاسي .
من الموتِ الأبيض ، انهضي ، يا (إساجل) ،
هيا انهضي ، وساعديني في لحظاتي الأخيرة .

٩٩

قطعتُ الغرف ذهاباً وإياباً ،
لكن الوقت كان قد فات ،
مشيتُ في غرفة الرّوح ذات ليلة
وشعرتُ ببرودة شديدة ،
وببرودة أكبر بعيداً عن كلّ الأشياء المعتدلة ،
واستيقظت ذاكرتي بكلّ صخبٍ
تستحضرُ بلادَ (دورسفلد) .

وبقسوة أكبر وأكبر أجهضت أسنان الوقت
أحلامنا في كل ركن منعزل
ومثل رمل الوقت انسكب نثارُ الأشياء
فوق الأرض والطاولات في مقاطعتنا الفضائية .

كانت إنيارا تسافر في سنتها الرابعة والعشرين
بسرعة كبيرة باتجاه كوكبة القيثارة ،
غير أن نجمة (دوريس) اختلطت الآن

بحشد هائل من النجوم الأخرى ، تجمّعت
في شكل حلقات كبيرة ،
لكنها ، في واقع الحال ، كانت معلّقة
بخيوط واهية في البرد الأزلي القارس
حيث كل شمسٍ بمثابة شهيد للفراغ .

وكانت سفينةُ إنيارا تزدادُ خَرَساً وصمَماً :
في الماضي كانت قارباً معتداً بنفسه ،
والآن هي مجرد تابوت طائر ، فاقدة لقوتها ،
مقذوفة إلى فضاء خاوٍ
مع خيط الأكسجين السائل
الذي راحت تتمسّك به أثناء سقوطها .

قمرةُ الطيارين فارغة منذ مدّة ،
وأولئك الذين تجمهروا في غرفة العجائب
يرقدون الآن حيث ترقدُ (ديزي دودي) منذ سنين :
ملكةُ الرقص محاطةً
بوصيفاتها وفرسانها .

سكوتٌ هبطَ على القاعات ،
ولكن في مكان ما ،
داخل الاتساع الكبير للقاعة العملاقة

سُمِعَت أصواتٌ .
إذا مشيت باتجاهها لآلاف من الخطوات
تأتي على قاعة روح الفضاء
حيث حشد من المهاجرين الكونيين
يجلسون ، بفرائص مرتعشة .

لاعباً لعبة الأزل في شطرنج الفناء
هناك راحوا يتخبطون بمشاكلهم المميتة ،
أحدهم فقد عقله
واعتلى سلم البلاغة ليحاضرَ عن رحلات
الجنس البشري ، وعن (بونت) و(صور)
وعن (فنلاند) و(غاما) .

ولكن في فمهِ تخثّرت البلاغةُ .
آخر المتحدثين هذا أغلق فمَه ثانيةً ،
وراح ينظر حوله مرتعشاً
حيث رحلة حياته ذهبت بعيداً
إلى مكان لم يحلم به من قبل
في سهول (تاغوس) .
لم تكن تُسمَع سوى أصداء الموت
تجيب عن حديثه الذي ألقاه على الموتى
الذين راحوا يتزايدون ،

والآن ، متجمّدَ العروق ،
بعينين صافيتين كالزجاج ،
راح ينظرُ إلى كوكبة القيثارة
من أعلى سفينة الفضاءات ، إنيارا .

١٠٠

لم يعد هناك من أضواءٍ لتُشعَلَ .
عند قبر روح الفضاء ،
كان ثمة مصباح من الإيمان يحترق ،
حيث آخر المتبقّين ، اليائسين من الخلاص ،
اجتمعوا ، مديرين ظهورهم على محيط الموت .

الساعات الأخيرة للجنس البشري
خاطبت اللهب بأسئلة في عيونهم .
كذلك على الأرض ، جلس الآلاف حيارى ،
قرب الضوء الأخير لمصابيحهم ،
وراحوا يراقبون ذؤابته ويصغون
لكتيبة الإعدام تطلق نيرانها
حيث الجدران الحجرية القاسية تُرجعُ صدى
طلقات البنادق وارتجاجها .

لأنّ وحشية الفضاء لا تضاهي وحشية البشر .
كلا ، فالقسوة الإنسانية تبدو أكبر وأعلى .
في عزلة زنزانة معسكر الموت ،
وفي فضاءٍ من الحجر ، حُبِست أرواح البشر ،
وصمتُ الحَجارة الباردة تناهى إلى الأذن :
هنا يحكمُ الجنسُ البشري . وسفينةُ إنيارا هنا .

١٠١

كان ذلك ليلنا الأخير في قاعة روح الفضاء .
ذاتٌ تلو ذات انهارت واختفت ،
ولكن قبل أن تختفي الذاتُ وتنقرض ،
كانت إرادةُ الروح تبزغُ أقوى للعيان ،
محررةً الوقتَ من براثن الفضاء ،
ومهدهدةً أهل (دوريس) إلى نوم سريع .

١٠٢

كنت أنوي أن أبني لهم مكاناً كجنة عدن ،
ولكن منذ أن غادرنا الجنّةَ التي دمّرناها ،
صار بيتُنا الوحيدُ ليلَ الفضاء ،
حيث لا يسمعنا ربٌ في الخلاء الفسيح .

لغزُ المجرّات الأزلي ،
والفيزياءُ العجيبةُ للمجموعات الشمسية
هي القانون ، لكنها ليست كالحقيقة المقدّسة .
الشفقة تزدهرُ في أسس الحياة .

سقطنا بفعل قوة القانون ذاته ،
ولقينا حتفَنا العبثي في عرين روح الفضاء .
الإلهُ الذي صلّينا له حتى النهاية
جلس جريحاً ويتيماً في وديان (دوريس) .

١٠٣

أحني المصباح نحو الأسفل وأصلّي للسلام .
مأساتُنا اكتملت . بين الحين والآخر ،
كنت أستخدمُ تصريحَ رسولي لعرضِ مشاهد
من مصيرنا عبر البحار القطبية .

بسرعة لا هوادة فيها باتجاه كوكبة القيثارة ،
ارتحلت سفينةُ الفضاء
على مدى خمسة عشر ألف سنة ،
مثل متحف مملوءٍ بالأشياء والعظام ،
مجفّفة النباتات من حقول (دوريس) .

داخل تابوتنا الهائل نرقدُ ،
عابرين البحار الخاوية ،
حيث الليل الكوني ،
المفصود أبداً عن النهار ،
يرخي صمتاً جلياً كالزجاج حول قبرنا .

حول قبرِ روحِ الفضاء
تجمهرنا في شَكل حلقات ، بشراً ساقطين ،
متحولين إلى رمادٍ بلا ذنوب ،
متحرّرين من اللسعات المريرة للنجوم .
عبرنا يتدفّق تيارُ (نيرفانا) حتى الثمالة .

صدر له (عابد اسماعيل)

في الشعر:

-طواف الآفل، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٨، بيروت

-باتجاه متاه آخر، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩، بيروت

-لن أكلم العاصفة، دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠، بيروت

-ساعة رمل، دار الينابيع + دار الكنوز، ٢٠٠٣، دمشق، بيروت

في الترجمة:

-قلق التأثر، هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٨

-نظرية لانقدية، كريستوفر نوريس، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٩

-سبع ليال، خورخي بورخس، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٩

-خريطة للقراءة الضالة، هارولد بلوم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٠

-بورخس (مذكرات)، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢

-الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٢

-نصف حياة، ف. س. نايبول، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢

-ادفنوني واقفاً، إيزابيل فونسيكا، دار البلد، دمشق، ٢٠٠٣

-ساعة حياة، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٣

-فن الكتابة، توني بارنستون وتشو بينغ، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٣
-باقة برية، هاري مارتينسون، دار المدى، ٢٠٠٥
-الذين يحبون الشوك، جونيشيرو تانيزاكي، دار المدى، ٢٠٠٥
-أغنية نفسي، وولت ويتمان، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦

في النقد:

-ولاس ستيفنس: تخيل صوفي أسمى (أطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية) جامعة نيويورك، ١٩٩٥

نوبل ١٩٧٤
هاري مارتينسون

- ولد في 5 آيار 1904
- قصائد (باقة برية) تحتفل بالطبيعة، وتصور التنوع المدهش لكائناتها من شجر ونبات وطيور صدر عن دار المدى.
- كان أول نجاح للشاعر صدور كتاب الشوك يزهر) 1935 الذي يصور طفولته حيث عاش يتيماً.

من أبرز رواياته: (رحلات دون هدف) 1932 (السفر) 1936، (الطريق من كلوكريك) 1948 وهي آخر مؤلفاته النثرية.

- (إنيارا) ملحمة شعرية تتحدث عن رحلة إلى الفضاء.
- توفي 11 شباط 1978.

علي مولا

ISBN:2-84305-837-X
9 782843 058370